2269
.26053
.366

2269.26053.366
al-Daqr
Muhādarāt fī al-dīn wa-al-ta'rīkh wa-al-ijtimā

DATE | ISSUED TO

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 073548685

عبد الغني الدقر

محاضرات

في الدين والتاريخ والاجتماع

١٣٧٢ - ١٩٥٣

عبد الغني الدقر

al-Daqr, 'Abd al-Ghani

Muḥāḍarāt fī al-dīn ...

محاضرات
في الدين والتاريخ والاجتماع

١٣٧٢ — ١٩٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه والتابعين

أما بعد فهذه محاضرات ألقي بعضها في ردهة المجمع العلمي العربي ، وبعضها في دار الاذاعة السورية ، وبعضها في المساجد والاندية ، ونشر بعضها في المجلات والصحف. وكل هذه المحاضرات تجمعها فكرة واحدة : هي الفكرة الدينية الموجهة ، باسلوب حديث ، وعرض جديد .

وأعترف بأن هذه المحاضرات لم تكتب حين كتبت وألقيت ، لتجمع وتبرز للناس كتابا ، وانما كتب أكثرها استجابة لطلب مستعجل ، وسيرى القارئون فيها أثر السرعة في الانجاز ، ولقد كنت أدفع للمطبعة بالمحاضرات قديمها وحديثها من غير تبديل الا مادعاني الايجاز الى حذفه من بعض الجمل أو المقاطع . أقول هـذا اعتذاراً عما يمكن ان يلاحظ في بعضها من ركاكة او غموض او خطأ . واذا صادف احد شيئاً من ذلك فله خالص شكري إن أصلحه أو نبهني عليه. وقد وقع — لاشك — بعض الاخطاء المطبعية لعدم العناية الكافية بتصحيح التجارب ، فوضعت لأكثرها جدولاً للخطأ والصواب في ختام الكتاب، فالخير لي وللقارىء أن تصحح قبل الاقبال على قراءته ، واما مالم اسجله في جدول الخطأ والصواب فقد تركت تصحيحه لفطنة القارىء . ولولا تشجيع الجمعية الغراء وبعض المستمعين — اذ رأوا في نشر هذه المحاضرات مجموعة في كتاب فائدة وخيراً — لكان ينبغي — في رأيي — ان تكون حبيسة محجوراً عليها ، ومهما يكن من شيء فان الفضل في نشر هذا الكتاب يعود الى الجمعية الغراء فان رأى القارئون فيه خيراً فليعودوا بشكرهم اليها وإن رأوا غير ذلك فاللوم لي من دونها .

في ٢٧ رجب ١٣٧٢ موافق ١١ نيسان ١٩٥٣

عبد الغني الدقر

2269
.26053
366

فهرس المحاضرات

	صفحة
الشباب في عهد الرسول	١
في ذكرى المولد	٤٤
منقذ المرأة	٥١
مواثيق الاسلام	٦١
الصراط المستقيم	٦٨
الحياة والنور	٧٤
الثبات على المبدأ	٨٠
القرآن والعلم	٨٧
ابو بكر الصديق	٩٤
عمر بن الخطاب مع عماله	١٠١
العدالة الاجتماعية	١٠٩
صور من العدل في الاسلام	١١٦
محمد المجاهد الاول	١٢٣
الدين والنظام	١٢٩
الامانة	١٣٤
مفاتيح الخير ومفاتيح الشر	١٤١
المسجد في الاسلام	١٤٨
الغش	١٥٤
من هنا كانت تشرق شمس الاسلام	١٦٢
ليلة سمر في القرن الرابع	١٦٨
شهادة صابئي بثلاثة اعلام	١٧٨
تكويننا الاجتماعي وكيف يجب ان يكون	١٨٤
جولة في كتاب	١٩٥
الصوم ارادة وحرية ورياضة روحية	٢٠٢
صيام المتقين	٢٠٨
حكمة الصيام في مواساة المعوزين	٢١٣
رمضان موسم عبادة	٢١٩
وداع رمضان	٢٢٤
جدول الخطأ والصواب	٢٢٨

الشباب في عهد الرسول ﷺ

على رأس الأربعين، ذروة[١] الشباب، حين تستحصد المرّة[٢]، وتكتمل المواهب، وتنضج القوى، برز محمد، صلوات الله عليه، رسولاً الى العالمين، بالهدى ودين الحق، بعد أن دخل هذه المدرسة التي تصنع الرجال، وتخرج العباقرة، المدرسة الاجتماعية الكبرى، مدرسة الحياة، فلقد دخل هذه المدرسة بأرهف استعداد، هو استعداد النبوة، لتتحنك[٣] فيه بشريته، على النحو الذي استنه الله للبشر في هذا الكون، ليلقى الناس بعد برسالته، على سَنن[٤] من طبائعهم وغرائزهم وأحاسيسهم، وما جعل الله رسوله بشراً يأكل الطعام ويمشي في الاسواق، الا لينفذ في ذلك ارادته، في ابتعاث الانسان الكامل، الذي يكون مثلاً واقعياً أعلى للانسانية، في أشرف منازعها[٥]، وأخلص سرائرها، وأسمى ميولها، في أعلى الحدود الممكنة، لمخلوق سواه الله من لحم ودم، وميزه

---

[١] ذروة كل شيء أعلاه. [٢] المرة: قوة الخلق وشدته. [٣] تحكمها التجارب
[٤] السنن: الطريق. [٥] المنازع: جمع منزع وهو الميل.

بالعقل والقلب ، ولو شاء الله لجعل رسوله ملكاً ، وعطّل من أسبابه التي أحكم بها نظامه ، وأتقن صنعه ، ولكنه بعثه رسولاً من أنفسنا ، لبث عُمرَه يعاني فيه من ضروب العيش ما نعاني ، ليكون بمكان من الخبرة الاجتماعية يجتبيه الله بها ويصطفيه [١] ، اذ أن الاصطفاء أن يختاره الله قادراً على سياسة التبليغ ، وبث الدعوة من دون الناس جميعاً ، ولا يكون ذلك الا بسبب من معالجة أمور الناس ، والتقلّب في أعطاف الزمن ، وهكذا كانت حياة النبي ﷺ الى ان نزلت عليه الرسالة ، فقد ضحِيَ [٢] الى هذا الوجود كما يضحى العصامي ، فاقداً أول من يجب ان يراه بعد أمه ، وهو أبوه ، ليتلقى الحياة مباشراً وبغير ماواسطة ، وليمحو من نفسه اول مايمحو غريزة التواكل ، ويكتنز اول مايكتنز فضيله الثقة بالنفس والاعتماد على الخالق وحده ، وانسأ [٣] الله له في أجل امه ، ريثما تتم له حضانة طبيعية مامنها بد ، ولكن الله استلها من حوله بعد ان أدت مهمتها وأردفها بجده ، بعد ان كفل به سنتين ، فبقي وحيداً يرعاه ربه وهو في السنة الثامنة لا يُلفي من يصله من رحمه الا عمّه ابا طالب ، وهنا قذفه الله في حياة شعبية عادية ساذجة ، فاصطنعه راعياً للغنم ، يعلمه بذلك قيادة اولية ، على قدر مايمكن ان يحتمله

---

[١] أي يختاره . [٢] أي برز . [٣] أي أبعد وأخر .

العقد الاول من العمر ، ويعرفه حالاً يحسها بنفسه ويجد مسها بقلبه ، حالاً لايهبط اليهابالعادة العظماء ، ولكنها حال ماأجدرها بالرجل يُنشَّأ عظيماً ، ثم زجه [١] في الاثنتي عشرة من عمره في أتون [٢] مستعر يتجلى فيه الشر يبدي ناجذيه ، وهو الحرب حرب الفجار ، التي شهدها مع عمومته يجمع لهم فيها السهام ، ويشرف على الكر والفر ، يصلَّب بذلك عوده ، ويعرف وجهاً من حماقة الانسان حين يصلى الحرب جذَعة [٣] ، على تافه لايؤبه له ، وحضر بعدها حلف الفضول ، الذي يحدثنا عنه بعد الرسالة بقوله « لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار عبدالله بن جدعان ، ماأحب ان لي به حمرَ النَّعم ، ولو دعيت به في الاسلام لأجبت » وما ناهز العشرين واستقام له الأمر ، إلا وانطلق مع قومه يعاملهم ويعاملونه ، ويتعرف أخلاقهم ، ويتعرفون خلقه ، عن طريق الاتجار ، والضرب في الارض يبتغي من فضل الله ، وهل أحسن منهما فتنة له ولقومه ، تسفر عن خبيئة كليهما ؟ فقد ظفر هو بالكثير مما هم فيه خيراً وشراً ، وظفروا هم ايضاً بما قدروا عليه ، حتى توجوه بلقب ، الامين بما وقعوا عليه من كمال معاملته عليه السلام ، ثم دخل بعد ذلك الحياة المركبة حين تزوج بخديجة ، بعد ان استأجرته للاتجار بمالها . ولما بلغ الخامسة والثلاثين

---

[١] قذفه [٢] أصله موضع حرق الحجارة [٣] أي حديثه قوية .

من عمره ، امتحن الله بصيرته وعقله واهليته وأهبته ، في اخطر امر وأحرجه ، ذلك حين احتكم اليه العرب فيما ينذر بداهية دهماء ، من تنازع بطون قريش وغيرها على وضع الحجر الاسود ، لولا ان تداركها عليه السلام بحصافة عقل [١] ، وحكمة رأي ، حقن [٢] بهما دماءهم ، واسكت حفائظهم ، وهدأ من نعرتهم [٣] ، فرأوا فيه بعد الأمانة ، الرجل المسدد الرشيد ، والأريب اللبيب ، وما أتى عليه من عمره اربعون حتى كان اعظم الرجال بصراً ومرونة وحنكة ، قد عجم [٤] قومه وعجم زمنه ، وعرف من أسرارهما مايجعله اهلاً لأن يختاره الله رسولا يبلغ آيات ربه وينشر دعوته .

وهذه النهضة الاسلامية الكبرى التي رجت الأرض رجاً ، ومدت رواقها على الشرق والغرب ، وامتدت اربعة عشر قرناً ، ويحصي افرادها اربعمائة مليون ، تحكم كثيراً في مقدرات التاريخ العام ، وتمد الحضارة العالمية بقسم كبير ؛ وينبغ فيها علماء وفلاسفة ومكتشفون وحكماء ، وينبغ فيها امراء وقادة وسياسيون . هذه النهضة كلها مدينة بالقسط الكبير الى شخصية النبي في سياسة التبليغ ، التي وكل الله امرها اليه ، ومرغمة على الاعتراف ، بأنه اعظم مربٍ للافراد والشعوب ، منذ خلق الله الخلق ، وما

---

[١] أي عقل متين مستحكم . [٢] حفظ . [٣] النعرة : الخيلاء والكبر . [٤] اختبر

ابتعثه الله الا وتعهد فيه رجولة جبارة، تخترق بدهائها كل صعب، وتتخطى كل عقبة، في سبيل ماأرسلت من اجله، ولن نستطيع ان نستوفي بمحاضرة القول في هذه الرجولة العظيمة، فلنجتزىء بالقول عما نحن بسبيل منه.

من تربيته عليه السلام

لبث رسل الاصلاح، وعلماء التربية، وفلاسفة الاخلاق، نحواً من ثلاثين قرناً، ينفقون جهدهم، ويبذلون قرائحهم، في اكتناه اسرار الانسان، والبحث عن غرائزه وأطواره، والتنقيب عن عواطفه وميوله، والسَّبر[1] لتفكيره وذكائه، ومدى نشوء ذلك كله في الافراد والجماعات، يتقرَّون[2] بذلك كل دقيقة وجليلة، ويتقصون[3] المستسر[4] والمبهم، ويتفحصون الامور على وجوهها، حتى انتهوا الى ان نقضوا هذا الهيكل الانساني فنثروه ذرات كالجوهر الفرد، وقتلوه بالبحث والتنظير، وهم مازالوا يُعنون بهذا النوع من التشريح، ويركبون اليه كل صعب، ليقوموا من أوده[5]، اوليبعثوه من جديد، في مدينة فاضلة، تعفو[6] فيها الآثام والشرور، وتنشر فيها السعادة، كل ذلك، والانسان هو الانسان، وماندري بعد هذه الاحقاب،

---

[١] السبر: الاختبار [٢] أي يتتعون [٣] يتتبعون حتى النهاية [٤] المخفى [٥] أي اعوجاجه [٦] أي تمحى

هل يأتي ذلك الحين الذي ينزل فيه هؤلاء العلماء من أبراجهم ، فيجمعوا الانسان بعد ان نثروه ، ويحيوه بعد أن قتلوه ؟

ولكن الأمر الذي يثير الدهشة ، ويدعو الى العجب والاعجاب ، ان يكون المستأثر بالتربية النفسية العملية ، النبيُّ العربي الامي ، محمد رسول الله ، وما نقول ذلك لأنا مسلمون ، بل لان الواقع يؤكد ذلك ، والاثر البليغ دليله ، فلقد ربى عليه السلام جيلين ، فمن الطفولة الى الشباب ، ومن الشباب الى الشيخوخة ، وأبدى في تربيته هذه قدرة خارقة ، مكنته ان يتناول بيسر ما اعجز الجهابذة من الحكماء ؛ فقد ساير الطبيعة الانسانية مسايرة محكمة دقيقة في جميع أطوارها ، وأتى (١) السبل للغرائز لتجري مطلقة على قدر النمو ، من غير شطط يؤذيها وينال منها ، مزاوجاً فيها بين الميول والأحاسيس ، ومراعياً فيها نظام الطبائع ، يستثمر ذلك كله لتزكية النفوس وتقويتها وإصلاحها ، عن طريق سائغة لا تصادم الأمزجة ولا تعاكس الفطر .

فاذا انتهى الطفل مثلاً الى السن التي يجدون فيها انفسهم مرتاحة لنوع من اللعب ، لم يكبت رغبتهم فينكمشوا على انفسهم ، ويقلص (٢)

---

(١) أي مهدها وسهل طريقها . (٢) أي ينكمش

مرحهم ونشاطهم و يذوي [1] بذلك روحهم ؛ لم يمنعهم من اللعب ، بل كان يغريهم به ، ويشجعهم عليه ، ويظهر لهم رغبته بذلك وحبه وحنوه ، فعن عبد الله بن الحارث قال : « كان رسول الله (ص) يصُفُّ عبد الله وعبيد الله وكُثيراً بني العباس ويقول : من سبق الي فله كذا ، فيستبقون على ظهره وصدره ، فيقبلهم ويلزمهم » . وعن علي : « أن النبي (ص) كان قاعداً في موضع الجنائز ، فطلع الحسن والحسين فاعتركا ، فقال رسول الله وعلي جالس ، ويهاً [2] حسين خذ حسناً ، فقلت تؤلب على حسن وهو اكبرهما يارسول الله ؟ فقال رسول الله : هذا جبريل قائم وهو يقول ويهاً حسناً خذ حسيناً » وما كان يمنعه الوقار ان يشاركهم بالمداعبة والمجامله ، فكثيراً ما استخفهم الى اللعب كما يصنع الترب مع الترب [3] ، فيثب الحسن والحسين على ظهره الشريف ، فيمسكهما بيده ، حتي يرفع صلبه ويقوما على الارض فاذا فرغ أجلسهما في حجره ، كما روى ذلك ابو هريرة . وعن جابر قال : « دخلت على النبي (ص) وهو يمشي على اربع وعلى ظهره الحسن والحسين وهو يقول : نعم الجمل جملكما ونعم العدلان انتما » ولقد كان هذا دأبه مع الصغار الذين تكثر رؤيته لهم وهم بين ظهرانيه ، وما كان يفرق بين اقرب الناس

---

(١) أي يذبل (٢) ويهاً . كلمة اغراء [٣] هو المقارب بالسن .

اليه وابعدهم منه ، ولا بين أولاد القرشيين الهاشميين والموالي المملوكين ، حتي اذا حاق [1] باحدهم مكروه ، بادره فرفه عنه ، وطيب بذلك نفسه ، وأزال الغشاوة عن قلبه، واحسن مداعبته قالت عائشة : «عثر اسامة بعتبة الباب فشج في وجهه ، فقال لي رسول الله اميطي عنه الأذى، فقذرته ، فجعل رسول الله يمص الدم ويمجه عن وجهه ويقول:« لو كان اسامه جارية لكسوته وحليته » . وقال عطاء بن يسار : « كان اسامة بن زيد قد أصابه الجُدري اول ماقدم المدينة وهو غلام ، مخاطه يسيل على فيه، فتقذرته عائشة، فدخل رسول الله، فطفق يغسل وجهه ويقبله، فقالت عائشة : أما والله بعد هذا فلا أقصيه ابداً» وهكذا كان يشمله بعنايته، ويضمهم الى صدره، ويبسط لهم بشره وعطفه ، وينشر عليهم جناح رحمته ، قال أسامة بن زيد : كان النبي (ض) يأخذني فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن بن علي على فخذه الاخرى ، ثم يضمنا، ثم يقول :اللهم اني أرحمهما فارحمهما ». ما كان النبي ليهمل شيئاً مما ينبغي لتكميل مواهب الصغير ، وتقوية عواطفه ، وتطهير دخيلته حتى القبلة يرسمها على وجهه ، بل ربما امر بها ونال ممن ترفع عنها ، ففي البخاري عن ابي هريرة ، قال : « قبّل رسول الله الحسن بن علي ، وعنده

---

[١] اي احاط به .

الاقرع بن حابس التيمي جالساً ، فقال ان لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم احداً ، فنظر اليه رسول الله (ص)، ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم» يفعل كلّ ذلك رسول الله ، ليُعد الصغير أتم إعداد ، فيقدم على التميز ، وقد شُحذت مشاعره ، وأُرهفت حواسه ، وتفتح وعيه ، ونضجت طفولته ، لم يفتقد الحنان فتضطرب عواطفه، ولم يُنهنه[1] عما يريد من المحمود بالطبع فيُكبت شعوره وتحطم معنويته ، ولم يُنبذ ويُحتقر، فيحنق ويحقد ويكيد، وانما يبرز قوياً غير ضعيف ، نقياً غير موبوء ، قد أخذت طبيعته حظها من نفسه ، واستكملت عملها فيه . وهذا اللون من التربية هو العنصر الفعال لايجاد العبقرية، وهي العلاج الوحيد لتزكية العقل الضعيف ، وفتح النفس المغلقة ، وبسط الشعور المنقبض ، وهي من اكبر الذرائع ، لبث الطموح وغرز روح الاقدام ، والثبات عند المفظع من الامر .

هذه صورة مصغرة لتربيته عليه السلام ، لمن هو دون السابعة او الثامنة من العمر ، فاذا جاوز الغلام هذه السن الى التميز ، فهناك شكل آخر من أشكال التربية ، يسير معهم فيه على غرار قاعدة في التربية تقول : « عامل ولدك معاملة الرجال لايلبث ان يصبح رجلاً » ، فقد كان عليه

---

[١] ينهنه : اي يزجر

السلام يفسح لهم المجال بين الرجال ، ليثبتوا أشخاصهم ، ويروضوها على ان تأخذ مكانها الاجتماعي ، ليستطيعوا ان يستقبلوا الحلم مؤتنف [١] الرجولة ، مكينين [٢] قادرين ، قد شغلوا بحق ماملأ وا من الفراغ وقاموا بواجبهم في الحياة أتم قيام ، فدعاهم عليه السلام في هذا السن الى الاسلام ، وكلفهم بالقيام بأمر الدين ، وعلمهم آياً [٣] من القرآن ، وأهداهم أروع نصائحه ، ووصاهم بأبلغ وصاياه ، وقبل معاونتهم في الغزوات اذا لم يباشرو القتال ، الا قليلاً منهم قد باشروه فعلاً ، وعني بتأديبهم وتعليمهم ، وقد بايع بعضهم كما بايع عقلاء الرجال بل عامل بعضهم ، كما يعامل سراة [٤] الناس وكبارهم ، فقد أخر الإفاضة من عرفه من أجل غلام افطس أسود ينتظره ، وذلك هو أسامة بن زيد ، فقال أهل اليمن انما حبسنا من اجل هذا ؟ قال عروة : ولذلك كفر أهل اليمن من أجل ذا . قال محمد بن سعيد : قلت ليزيد بن هارون ، مايعني بقوله كفر اهل اليمن من اجل هذا ، فقال ردتهم حين ارتدوا في زمن ابي بكر ، انما كانت لاستخفافهم بأمر النبي (ص) . والحق ان رسول الله كان يري مالا يرون ، وهذه الحكمة في التربية هي التي جعلت من علي خليفة عالماً عادلاً عبقرياً ، وجعلت من ابن مسعود قارئاً عالماً ، وجعلت من ابن عباس عالماً

[١] اي مبتدئها . [٢] واحده مكين وهو الثابت المتمكن [٣] جمع آية [٤] السراة اشراف الناس والواحد سري .

اكبر وهو لا يزال شاباً ، وجعلت من اسامة ، بطل الابطال ، وكمى النزال ، واميرِ الرجال ، ومما امتازت به تربيته العملية عليه السلام لمن كان في هـذه السن ايضاً ، حسنُ التوجيه الذي يوفق به بين الاستعـداد والرغبة ، يُعيّن بذلك لهم اهدافهم ، ويُذكي اليها هممهم ، ويُعبد لهم شطرها[١] طريقهم ، ليكونوا بمأمن من عاديات[٢] التردد والاضطراب ، وتشعب الطرق والاغراض ، لئلا تضيع ملكاتهم ومواهبهم ، ويخفت توثبهم ، ويُقضى على نشاطهم . كل هذا ، ولم يبلغ الاطفال الحلم ، فاذا بلغوا الحلم او السن الخامسة عشرة ، فهناك الشباب ، وهناك الرجولة ، أوليست الطبيعة قدأعدته لذلك ، فأمرّت عوده وصلّبت مغمزه ، فما عليه بعدها الا أن يشغل مكانه بحق في هذه الحياة ويقوم بعمله المهيأ له ، فليس بعد هـذه السن بمنتظر .

تحذيره عليه السلام اول سن الشباب :

كان من آثار تلك الشعلة التي أضاءت ربوع مكة وبطاحها ، وتلك الفورة التي غزت القلوب والعقول ، وتلك التربة الرفيعة التي استهوى

---

[١] اي نحوها [٢] جمع عادية وهي البعـد او الشغل يصرفك عن الشيء
[٣] اي ينهضون .

فيها الرسول الصغار والكبار ، كان من آثارها ، ان دبت الحيوية في نفوس هؤلاء الولدان ، فجعلوا يستبقون الى العمل ، وينهدون[1] الى الجهاد ، قبل ان يكون لهم من السن ما يسمح لهم بهذه المغامرات الصعبة ، ولكن رسول الله كان يأخذ بحُجزهم[2] عن اقتحام هذه الاهوال التى ما كان يراهم اكفاء لخوضها ، وتصلية جحيمها ، قبل بلوغهم الخامسة عشرة من عمرهم ، فرد منهم الكثير لا يراهم بلغوا هذه السن ، يوم عرض قومه في وقعة أحد منهم عبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ارقم ، والبَراء بن عازب ، واسيد بن ظهير ، وعرابة بن أوس ، وابو سعيد الخدري ، وسعيد بن خيثمة ، الا فئة قليلة ، كان لها من قوة الاقدام ما ذلل لها ارادة النبي (ص) في اجازتها مع المحاربين ، فهذا عمير بن ابي وقاص ، حين ابى عليه النبي ان يخرج في غزوة بدر بكى ، فاجازه حين رأى منه عزيمة ماضية ، وصدقاً نادراً ، وهذا سمرة بن جندب قال لزوج امه وقد استفزه ان اجاز رسول الله رافع ابن خديج في غزوة احد قال : اجاز رسول الله رافع بن خديج وردني وانا اصرعه ؟ فأعلم بذلك رسول الله ، فقال : تصارعا . فصرع سمرةُ رافعاً

---

[١] اي ينهضون [٢] اي يكفهم

فأجازه ، كل هذا يدلنا ان النبي (ص) كان يعتبر الخامسة عشرة إبان[1] سن الشباب ، حتى قال بعضهم ، إن هذه السن هي الحاجز بين الصغير وسن التكليف ، فاذا انتهى الفتى الى هذه السن ، فذاك اوان استعداده لأن يضطلع باعباء الرجال ، ويستقل بمهماتهم ، وينهض بتكاليفهم ، مندفعاً في هذا الخضم ، يعمل وينتج ، بقلب حي ، ونفس دؤوب ، وامل بارق ، ولقد صرف النبي عليه السلام الى الشباب وجهه ووجهته ، ليكونوا كذلك ، وقد كانوا ، حتى جعلهم عمدته في جميع ما يتعلق بدعوته من اعمال كبيرة خطيرة ، من جهاد وايمان وعلم وقضاء ، وكان لهم في نفسه من المكانة ما رفع اقدارهم ، وبوأهم اشرف ما يصبون اليه من الكرامة والسؤدد والجاه العريض .

تشجيعه عليه السلام الشباب وعنايته بهم :

يكون التمايز بالقوة والصحة والتفضيل ، بين فكرة وفكرة ، بمقدار ما يكون لاحداهما من القدرة على النفوذ الى عالم الواقع ، والجري معه كأنها جزء منه ، لا تحيد ولا تريم[2] فان ضؤل نصيبها من الواقع

---

[١] اي اول سن الشباب [٢] اي لاتزول

فبقدر ضؤولته يكون الضعف التقلص والانحلال، فاذا لم يكن لها في عالم الواقع اي اثر، فتلك من الخيال والى الخيال، وهي الى طرفة ادبية اشبه منها الى فكرة عملية، فالرأي في الشيء ليس دائماً معناه العمل به، فقد يكون هناك مرب عظيم، عرف الشيء الكثير عن الانسان، وله فيه مذاهب وآراء، واضعاً تلقاءه الاهداف والمثل العليا، فاذا باشر العمل، عى بامره[1] فأدركه العثار[2]، وكبت به الزناد[3].

ولكن رسول الله زاوج بين الفكرة والعمل مزاوجة تجعل الفكرة الصالحة لا تنفك عن التنفيذ، كالزهرة الطيبة لا تملك ان تكتم اريجها[4]، اوكالفكرة قد اندمجت في العمل، كما اندمجت نواميس الوجود في الوجود، ممداً ذلك كله بعقله الراجح وعاطفته النبيلة، وساميا عما يسم الانسان بالنقص، ويهبط به الى درك من الملق الكاذب، والفخار الاجوف، فهو في معاملته الناس وتربيته لهم، عملي دقيق حقاً، يبذل من نفسه لكل صغير او كبير، ما يكفيه ذاتياً لتكميله ورفع مستواه، وما يكفيه لما يمكن ان ينتفع منه المجموع، فلقد كان عليه السلام يرى للشباب

---

[1] اي عجز [2] اى السقوط والوقوع والمعنى هنا مجازي [3] جمع زند وهو العود الذي يقدح به النار وكبا الزند اي لم يشتعل [4] اي طيب رائحتها.

من حقهم الذاتي الذي به يتأهبون لأجل الاعمال واخطرها ، ومن حق المصلحة الاجتماعية العامة فيهم ، ما يجعله يختصهم بعناية منه ، وما يجعله أشد الناس تشجيعاً لهم وعطفاً عليهم . والتشجيع : هو العامل الحي ، الذي به تنفرج النفوس عن عبقرية كمينة تعتلج في القلوب ، وهو ذاك الذي يقتدح الاستعداد ، ويؤرث[1] التفاعل الحيوي في النفوس المستكينة الضعيفة ، فتنضح القدرة بعد اليأس منها ، وتفيض بالخير بعد ظن الاخفاق ، وما خرج القادة والعلماء والقضاة وقد اوفوا على الغاية ، واشف من العاية ، الا عناية الرسول وتشجيعه ، ولولا هذه العناية وهذا التشجيع ، فقد يمكن ان يكون هناك نبوة ودين ، ولكن المستحيل عادة ان يكون هناك نهضة اسلامية كبرى تتغلغل في ادق ذرات العالم روحاً وعقلا وضميراً ، ولقد كان لرسول الله في التشجيع اساليب ، هي آيات في إبداع التربية على احكم نظام ، وامتن طريقة ، وهي في ناحيتها القولية والعملية ، عملية بليغة الأنتاج ، قوية ثابتة ، وما من عمل ينبغي ان يقوم به احد ، الا كان رسول الله يفتح طريقه اليه بالتشجيع ، ويذكيه بالعناية ، ومن اخص هذه الاعمال الحرب والعلم والقضاء ، اما تشجيعه عليه السلام

---

[١] التأريث في الاصل : ايقاد النار .

الشباب في الحرب ، فقد كان يرى فيهم من الاعتزاز بالنصر ، والنشوة في الفوز وثورة العقيدة ما حمله على الاستفادة منها فيما يجعلهم كتلة متماسكة ، من الجرأة والاقدام . فقد رفع من شأنهم ، وبسط من نفوذهم، ووطد من دعائمهم ، ما اتاح لهم ان يخوضوا اكبر المعارك ، وهم في الرعيل[١] الاول ؛ لا بل ان يفوزوا بالقيادة في كثير من السرايا والغزوات ، مقدمين على الجله من شيوخ الاصحاب ، فقد اعطاهم الرايات في اكثر المشاهد ، اعطى زيد بن ثابت راية بني النجار يوم تبوك، وعمره نحو من عشرين سنة ، بعد ان سلبها من عمارة بن حزم ، واعطى علياً راية بدر ، وهو بين احدى وعشرين واثنتين وعشرين سنة ، حتى اذا كانت غزوة خيبر ، قال رسول الله في الملأ : لأعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، قال سعد فبات الناس يدوكون[٢] ليلتهم أيهم يعطاها ؟ فقال : اين علي بن أبي طالب ؟ فقالوا يا رسول الله يشتكي عينه ، قال فارسلوا اليه ، وفي رواية ، بعث رسول الله (ص) ابا بكر برايته الى حصون خيبر يقاتل ، فرجع ولم يكن فتح وقد جهد ، ثم بعث عمر الغد ، فقاتل فرجع ؛ ولم يكن فتح ، وقد جهد فقال رسول الله (ص)

---

[١] هو في الاصل: مقدمة الجيش [٢] داك القوم : وقعوا في اختلاط

لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، يفتح الله على يديه ليس بفرّار، قال سلمة : فدعا بعلي وهو أرمد ، فتفل في عينيه ، وقال هذه الراية امض بها ، حتى يفتح الله على يديك ، فأية أريحية تلك التي يهتز لها ، حين يعلم قبل ان يلج غمار الحرب انه كان بموضع من ثناء النبي ، وثقته في إحراز الفتح ، والغلبة على العدو ، وهو لا يزال في شرخ العمر [١] ؟ ! وما كان الرسول ليأبى في سبيل التشجيع ، وزرع الثقة في النفس ، أن يعطى الراية غلاماً لم يتجاوز سنه العشرين ، بل أقل من ذلك ، فقد أعطى أسامة بن زيد راية السرية التي جهزها لتغير على أبنى من قضاعة ، تلك السرية التي ضمت اربعين الف مقاتل ، فيهم سراة الناس والمقدمون فيهم ، من المهاجرين والانصار ، مثل ابي بكر وعمر وابي عبيدة ، وقال حين بلغه ان الراية صارت الى خالد بن الوليد ، البطل الصنديد ، قال : فهلا الى رجل قتل ابوه يعني أسامة بن زيد ، حتى اذا طعن بإمارته بعض الناس ، تفيء [٢] واعتلى المنبر ، فقال « فما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة ، إن طعنتم تأمير أسامة فقد طعنتم في تأميري أباه من قبله ، وايم الله إن كان لخليقاً بالامارة وان ابنه من بعده لخليق بها ، وانه كان لمن احب

---

[١] اي اول الشباب [٢] اي غضب

الناس اليَّ ، وانه لمظنة لكل خير ، فاستوصوا به خيراً ، فانه من خياركم ،»
وهذه أمثلة قليلة لا يبلغ الاستقصاء الاحاطة بجميعها .

واما تشجيعه عليه السلام الشباب في العلم ، فقد كان يعلم أن الشباب أقوى على حمله وأضمنُ للانتاج فيه ، فهم ألين عقولاً وأصفى قرائح ، لذلك فتح لهم باب العلم على مصراعيه ، ويسر لهم اليه السبيل ، وأباح لهم في تلقفه ما لم يكن ليبيحه لغيرهم ، فقد أباح لعبدالله بن عمرو بن العاص ، ان يكتب عنه مايسمعه منه ، بعد ان حظَر كتابة الحديث على كل احد ، خشية ان يُلبسوه بالقرآن او ان يمزجوه به . قال عبد الله بن عمرو : استأذنت النبي (ص) في كتابة ما سمعت منه ، فأذن لي فكتبته ، فكان عبدالله يسمي صحيفته تلك الصادقة ، وقد أجاب ابو هريرة لما سئل عن أحفظ الاصحاب للحديث ، فقال: انا ، لولا عبدالله بن عمرو ، فانه كان يكتب . وقد يستجلب شغفهم ، ويعتصر رغبتهم من طرف خفي ، حتى في توجيههم الى نوع مخصوص من العلم ، فقد جلب عبدالله بن عباس ووجهه بدعائه له ، قائلا : اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب ، وقوله : اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل ، فكان كما أراد له الرسول ، فقيهاً في الدين ، عالماً بالتأويل ، حكيماً ، وقد قص عبد الله بن عمرو رؤياه على النبي فقال : رأيت فيما يرى

النائم كأن في إحدى اصبعي سمناً ، وفي الاخرى عسلا ، وانا ألعقهما . فلما أصبحت ذكرت ذلك لرسول الله (ص) فقال . تقرأ الكتابين التوراة والفرقان ، فكان كذلك متقناً للكتابين التوراة والفرقان ، ومن عظيم تشجيعه الشباب في العلم ، أن جعل من الشباب كُتّاب وحيه ، وكتّاب رسائله ، فقد كان منهم زيد بن ثابت ، ومعاوية بن ابي سفيان ، ولقد حض بعضهم على تعلم اللغات الأجنبية التي كان عليه السلام في حاجة ماسة اليها ، كالسريانية والعبرانية ، وذلك هو زيد بن ثابت ، ليقوم بأمانة السفارة فيما بينه وبين اليهود . ومن تشجيعه العملي في العلم ، الأذن للشباب بالفتيا في عهده ، وفي بلده ، فمن اولئك علي ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل . وما كان اكثر ما جهر بمدحهم في العلم تشجيعاً لهم ، كقوله : أعلم أمتي بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وسيأتي بعض ذلك .

واما تشجيعه عليه السلام الشباب في القضاء ، فقد علم عن الشباب الذين ابتعثهم من ذكاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، وبديهة الحجة ، ما دفعه الى ان يجتبيهم[1] لتولية القضاء ، من دون غيرهم ، من شيوخ الاصحاب ،

---

[1] اي يختارهم

حتى أصبحوا فيما بعد قضاة الدنيا ، فعن علي بن ابي طالب قال : بعثني رسول الله (ص) الى اليمن قاضياً ، فقلت : يارسول الله ، ترسلني وانا حديث السن ، ولا علم لي بالقضاء ؟ فقال : ان الله يهدي قلبك ويثبت لسانك، فاذاجلس بين يديك الخصمان ، فلا تقضين حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الاول ، فانه أحرى أن يتبين لك القضاء ، قال فما زلت قاضياً ، وما شككت في قضاء بعد هذا . وعن معاذ قال : لما بعثني رسول الله (ص) الى اليمن قال : بم تقضي إن عرض لك قضاء ؟ قال : قلت أقضي بما في كتاب الله ، قال : فان لم يكن في كتاب الله ، قلت : أقضي بما قضى به رسول الله ، قال : فان لم يكن فيما قضى به رسول الله ؟ قال : قلت اجتهد رأيي ولا آلو[1] ، قال : فضرب صدري ، وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ، وبعث النبي الى اهل اليمن كتابا بشأن معاذ قائلاً فيه : اني قد بعثت عليكم من خير أهلي ، والي علمهم والي دينهم . قيل ليحيى بن اكثم لما ولي القضاء وهو ابن احدى وعشرين سنة ، كم سن القاضي ؟ قال : مثل عتّاب بن أسيد حين ولاه النبي امارة مكة وقضاءها يوم الفتح ، وانا اكبر من معاذ بن جبل حين وجه به رسول الله قاضياً على اليمن .

---

[1] اي لا اقصر

لطفه بالشباب وحبه لرحمهم وخوفه عليهم وتأديبهم :

ليس هناك شيء أملك لنفوس الشباب ولا اقوى جذباً لهممهم ، ولا أورى لزنادهم ، من اللطف بهم والعطف عليهم ، ولقد كان الشباب من الاصحاب ، يدعون آباءهم وأمهاتهم ، ويتخذون من النبي الكريم صلوات الله عليه أباً وأماً ومعلما ونبياً ، يعكفون عليه ، ويفدونه بانفسهم وآبائهم وامهاتهم . ليس الا لأنه يتخذ من هذه النفوس اللدنة[1] ، وهذه المشاعر الحادة ؛ ذريعة[2] لطيها على أنبل العواطف وأحصف العقول . فعن معاذ قال : « أخذ رسول الله (ص) يوماً بيدي ثم قال : يا معاذ ، والله اني أحبك ، فقال له معاذ : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، وانا والله أحبك ، فقال : اوصيك يا معاذ ، لا تدعن في دبر كل صلاة ان تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

ولما أراد ان يبعثه الى اليمن قاضياً ، ركب معاذ ، ورسول الله يمشي الى جانبه يوصيه ، فقال يا معاذ : «أوصيك وصية الاخ الشفيق ، اوصيك بتقوى الله ، وعد المريض ، وأسرع في حوائج الأرامل والضعفاء ، وجالس الفقراء والمساكين ، وأنصف من نفسك ، وقل الحق ، ولا

---

[1] اي اللينة [2] اي وسيلة

تأخذك في الله لومة لائم ، فأي اثر أحدثت هذه الوصية في قلب معاذ ، بعد أن لابسها من لطفه عليه السلام وعطفه ، ما جعله يشغف حباً بالنبي ، ويصبح شعلة من الايمان والعلم والحرية والضمير . وكثيراً ما يبسط لهم من أُنسه فيسألهم ، يجمع لهم بذلك بين التعليم والمباسطة والاختبار ، دخل معاذ على رسول الله (ص) فقال : كيف اصبحت يا معاذ ، قال اصبحت مؤمناً بالله تعالى ، قال : إن لكل قول مصداقاً ، ولكل حق حقيقة ، فما مصداق ما تقول ؟ قال يا نبي الله : ما أصبحت صباحاً قط الا ظننت اني لا أمسي ، وما أمسيت مساء قط الا ظننت اني لا أصبح ، ولا خطوت خطوة الا ظننت اني لا اتبعها أخرى ، وكأني انظر الى كل أمة جاثية تُدعى الى كتابها ، معها نبيها ، واوثانها التي كانت تعبد من دون الله ، وكأني انظر الى عقوبة اهل النار ، وثواب اهل الجنة . قال : عرفت فالزم . ولقد أورثهم ذلك حرية في التفكير ، وجُرأة في الاستفادة ، وصَدعاً بما يرونه الحق ، لا يُحجمون ولا يُراعون ، وانتهى بهم الامر الى أن يسألوا النبي حتى عن الشرور وتفصيلها ، بل كانوا يحبون ان يستطلعوا الاشرار من الناس ، ولو كان النبي لا يرى الجهر بسوآت الرجال . قال معاذ تصديت لرسول الله (ص) وهو يطوف ،

فقلت يا رسول الله ، أرنا شر الناس ، فقال سلوا عن الخير ، ولا تسألوا عن الشر ، شرار الناس شرار العلماء في الناس ، نعم ! لقد كان ينفق في سبيلهم جهده وعنايته ، فيجيبهم اذا سألوه ، ويستمع اليهم اذا حدثوه ، ويعلي شأنهم اذا فازوا بحق او صواب ، ويقف دون شططهم اذا دفعهم دم الشباب الى ذلك ، ولو كان بسبيل من طاعة او تقوى ، لئلا يُضروا بأنفسهم فيمسهم السوء ، فان للشباب شرةً ونزوة ، فان هو اعطاهما اللبان ، وارخى لهما العِنان ، فقد ينقطان من عمره ومن جَلَده ، ما يعجل له القضاء ، فيكون كالمنبت ، لا ارضاً قطع ولا ظهراً أبقى ، قال النبي عليه السلام ، لعبدالله بن عمرو بن العاص : « الم أُخبَر انك تقوم الليل وتصوم النهار ، فقلت إني افعل ذلك ، فقال : إنك إن فعلت ذلك ، هجمت[1] عيناك ونفهت[2] نفسك ، إن لعينيك حقاً ، ولأهلك حقاً ، ولنفسك حقاً فقم ونم ، وصم وأفطر » ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : جمعت القرآن فقرأته في ليلة ، فقال رسول الله : إني أخشى ان يطول عليك الزمان ، وان تمل قراءته ، ثم قال اقراه في شهر ، قلت يا رسول الله : دعني استمتع من قوتي ومن شبابي ، قال اقرأه في سبع ، قلت

---

[١] اي غارت [٢] اي عيت

يا رسول الله : دعني استمتع من قوتي ومن شبابي ، فأبى ، وقد اهتم النبي بالشباب وحفظ لهم أقدارهم ، حتى كانوا عنده موضع شفاعة الناس، ووسيلتهم اليه، حتى آثرهم القوم في الشفاعة على غيرهم ، ما لم تكن الشفاعة في حد من حدود الله ، فما كان ليقبل فيه شفاعة الشافعين ، ولا وسيلة المقربين ، ففي طبقات ابن سعد : كان أسامة يأتي النبي في الشيء فيشفعه فيه فأتاه مرة في حد ، فقال : يا اسامة لا تشفع في حد ، وعن عائشة : أن قريشاً أهمهم شأن المراة التي سرقت ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله (ص)؟فقالوا: ومن يجترىء عليه الا اسامة بن زيد ، حب رسول الله (ص) فكلمه أسامة ، فقال رسول الله (ص) ، لم تشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام النبي (ص) فاختطب فقال : انما أهلك الذين من قبلكم ، أنهم اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها . كل ذلك قد كان ، لطف ووداعة ورفق واحترام ، وإيناس وترغيب ، وتثقيف وتشجيع ، يهذب بذلك من طباعهم ، ويقوم من أخلاقهم ويشرح صدورهم ، وينعش أفئدتهم ، حتى اذا بدرت من احدهم خطيئة عالجها بالحكمة والموعظة معالجة المعي (١) محنك(٢) ، عن الحضرمي قال :

[١] الذكي [٢] المجرب

طلحة ، صاحب لواء المشركين من يبارز ؟ فبرز له علي، فقتله ، ثم حمل اللواء عثمان بن ابي طلحة ، فقتله حمزة ، فحمله رجل ، فرماه سعد فقتله، فحمله مسافع ، فرماه عاصم بن ثابت ، ثم حمله كلاب ، فقتله الزبير بن العوام ، ثم حمله الجلاس بن طلحة ، فقتله طلحة بن عبيد الله ، ثم حمله أرطأةُ بن شراحيل ، فقتله علي بن ابي طالب ، فها نحن نرى ان هؤلاء الذين نازلوا العدو فقتلوه كانوا شباناً ليس فيهم إلا حمزة بن عبد المطلب . وأما أنهم صبر عند البلاء فقد كان رسول الله يقول : ما صبر معي يوم أُحد غير طلحة ، لقد كان يقيني النبل بكفيه ، وقال طلحة : لما كان يوم أُحد حملت النبي (ص) على عنقي حتى وضعته على الصخرة فاستتر بها عن المشركين، وما انصرف الرسوم يوم أُحد حتى قال لحسان قل في طلحة فقال :

وطلحة يوم الشِعب آسى محمداً ... على ساعة ضاقت عليه وشقَت
يقيه بكفيه الرماح وأسلمت ... أشاجعه تحت السيوف فَشلت
وكان إمام الناس إلا محمداً ... أقام رحى الاسلام حتى استقلت

ثم أتى سعد فأخذ ينضح بالنبل عن النبي وهو يقول له : ارم سعد فداك ابي وأمي ، ارم ايها الغلام الحزوّر ، اي المقارب للبلوغ ،

وشيبة والوليد، برز اليهم شبَبَة من الأنصار، ثم لما التحم القتال، وحمي الوطيس، كان الشباب أشد الرجال بلاءً، وأثبتهم رِجلاً وأصبرهم على مكروه؛ فهاهو علي ماقام اليه فارس إلا أقعده، حتى أُحصي من من صرعاه ما لم يحص لغيره كثرةً، وهاهو الزبير قاتل في ذلك اليوم قتالاً شديداً، حتى كان الرجل يُدخل يده في الجراح في في ظهره وعاتقه، وأما غزوة أحد فهي الغزوة التي أثارها الشباب وحدهم، حتى قال في ذلك بعض المنافقين في كلمة حق: فتيان أحداث لم يشهدوا بدراً، فطلبوا من رسول الله الخروج إلى ـ.وهم، ورغبوا في الشهادة، هذا ماقاله ولئن خسرها المسلمون، ماخسروها لأنهم ليسوا أكفاء لخوضها، أو لأن الرأي فيها لم يغبّ، فقد انتصروا أنجز انتصار في البدء على عدوهم، وغلبوهم على أمرهم، فلما طمعوا في متاع الدنيا، وأغفلوا أمر النبي، ضُرب عليهم الخذلان، ومُنوا بالهزيمة، على أن هذه الغزوه كان فيها فضل الكشف عن اقدار الرجال وامتحان قلوبهم، في حالتي النصر والهزيمة، فكان الشباب فيها صُبراً على عند اللقاء، صبراً عند البلاء، أما أنهم صُبر عند اللقاء فقد كانوا أول من خذل طليعة المبارزين من المشركين، فقد صاح طلحة بن أبي

جهاد الشباب وشجاعتهم

الجهاد في الاسلام فرع من فروع الايمان ، والشجاعة من نتاج العقيدة ، فإذا اتقدت في النفس جذوة الايمان وفار فيها مرجل العقيدة ، كان منها أبلغُ ما ينتهي اليه البشر ، من الايد[١] والبسالة[٢] والاقدام ، وغزوة بدر مع قريش ، وغزوة مؤتة مع الروم وواقعة القادسية مع الفرس ، برهان على ذلك ، وليس من التحيز أن نعترف ، ان للشباب في ميدان الجهاد والمفاداة اكبر نصيب في الحروب التي دارت رحاها في زمن النبي (ص) وهاهي اكثر الغزوات والسرايا وأكبرهما يفصحان عن ذلك فأما غزوة بدر ، وهي أعظم غزوة تم فيها الانتصار للمسلمين على قلة العُدة والعدد وكان لهم بها الفتح المبين — فقد كان حاملُ الراية فيها عليٌّ ابن أبي طالب شاباً في الحادية والعشرين من عمره ، وفارس الميمنة الزبيرُ بن العوام شاباً في نحو عمر عليّ . والذين كانوا يتجسسون أنباء العدو ويتسقطون[٣] خبره هم شبان أيضاً . ولما بدأت المبارزة كان الشباب يتسابقون اليها قبل غيرهم ، ففي حديث بدر : لما برز عتبة

---

[١] الأيد : القوة [٢] البسالة : الشجاعة [٣] تسقط الخبر : اخذه شيئاً بعد شيء

رسول الله ، وما لنا طعام إلا ورق الشجر حتى يضع أحدنا كما تضع الشاة » وكم نالهم من الأذى حين عزموا على هجرتي الحبشة والمدينة ، وكتب السير مستفيضة من هذا ، كل ذلك في سبيل إيمانهم ، وفي سبيل ثباتهم على دعوتهم ، فلا يجبنون ، ولا يرهبون ، ولا يبالون ، ماداموا يؤمنون ، فلقد كان عم الزبين (وعمر زبير نحو من عمر سعد) يعلقه في حصير ويدخن عليه بالنار ، وهو يقول : أرجع الى الكفر ، فيقول الزبير : لا أكفر أبداً ، ولما أسلم عبد الله بن سهيل بن عمر ، رجع الى مكة ، فأخذه ابوه فأوثقه عنده ، وفتنه في دينه ، فلما كان يوم بدر ، خرج عبد الله بن سهيل إلى نفير بدر مع المشركين ، وهو مع أبيه سهيل بن عمرو في نفقته وفي حملانه ، ولا يشك ابوه أنه قد رجع الى دينه ، فلما التقى المسلمون والمشركون ببدر ، وتراءى الجمعان ، انحاز عبد الله بن سهيل الى المسلمين ، حتى جاء رسول الله (ص) قبل القتال فشهد بدراً مسلماً ، فغاظ ذلك اباه غيظاً شديداً ، ومن هذا كثير ذائع ، ولئن اصابهم من ذلك ما أصابهم ، لقد تعزوا عن ذلك بتغذية روحهم ، ودعم يقينهم ، وصدقهم بحراسة مبدأ دعوتهم ، حتى فيما نالوا من صنوف الإيذاء وألوان العذاب .

بين يديه من يثق به ، ويعتمد عليه ، بعد زوجه أم المؤمنين خديجة ، الا عليّ بن أبي طالب ، ذلك الفتى الذي وجد النبي من قلبه الكبير ، ونفسه الطيبة ، وطويته المأمونة ، اعظم مثال للرجل يتفانى في عقيدة ، ويُرخص في سبيلها نفسه وماله . ومن السابقين الأولين : زيد بن حارثة ، وطلحة ، وسعد ابي وقاص ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وكلهم كانوا في فتوة السن ، حتى اذا بلغوا تسعة وثلاثين رجلاً ، كثرتهم الساحقة من الشباب ، أذن الله للشاب المِغْشم[1] الجلد من الفتيان عمر بن الخطاب ان يُسلم ، فأعلنه على ملأ من الناس ، صادعاً بالحق ، منافحاً عن الدعوة ، حامياً لها ، واذا قلنا السابقين الأولين ، فانما نعني أولئك الذين صبروا في البأساء والضراء وحين البأس ، فلقد كان ينتابهم من فوادح[2] الحوادث ، مالا يقوى على حملها هذا الجسم البشري ، بالغاً ما بلغ من الثبات والقوة ، ويكفي ان نذكر حادث الشعب الذي لبثوا فيه ثلاث سنوات ، حرموا فيها الطعام والشراب ، حتى قال سعد ، وكان عمره في هذه الحادثة نحواً من ست عشرة عاماً ، «لقد رأيتنا مع

[1] الشجاع الذي لايثنيه شيء عما يريد [2] جمع فادح : وهو الشديد الثقيل
[2] ما انفرج بين جبلين

وينفع المجموع ، ويقضي على فردية غاشمة تعبث بمصلحة عامة ، كما يقضي على إجماع يعبث بمصلحة الفرد. هذا هو الايمان الذي أثبت القدرة الهائلة في تهذيب البشرية وتقويم طبائعها ، يوم أن نقل العرب من حال لايحد تأخرَها وصف، الى حال بلغت من الكمال حداً لم تبلغه أمة ، أيام النبي محمد ومعه أصحابه الذين بلغوا أعلى الدرجات في الإيمان والثبات عليه واليقين به ، ولولا هذا الثبات وهذا اليقين من هذه الفئة السابقة لما كان من الجائز أن تبزغ وشيكاً دعوة الرسول ، وتمتد بهذه السرعة الى الآفاق وليس من بدع الامر أن تكون هذه الفئة السابقة الى الاسلام والمؤمنة به هي من الشباب ، لأنه مامن نهضة تحمل طبائع التجديد ، ولا ثورة تريد أن تصطلم[1] التقاليد ، ولا انقلاب يطغي على مواريث قومية ، ولا اصلاح يغسل من أوضار[2] التعفن النفسي ، إلا واستبق اليه الأحداث قبل غيرهم ، وأضرموه بنشاطهم وهمهم ، وتفانوا في سبيله ، فهم أنضر عاطفةً ، وألين قلوباً ، وأدنى الى الفطرة ، وأنأى عن التعقيد ، فقد كانت تصادف منهم الدعوة قلوباً حيةً خالية من الشوائب ، فيستجيبون اليها مسرعين ، وينتحلونها مخلصين ، ولما برز النبي بالرسالة ، لم يلف

[١] اي تستأصل [٢] جمع وضر : وهو الوسخ

بعنت [١] الزمن ، وتنزى [٢] بموبقات [٣] المادة ، ولا تؤمن الا بالقوة، ولا تستسلم الا لموجبات حيوانية ، فما على الناس ـ والأمر كذلك ـ الا أن يهرعوا من حمارَّة هذه الهاجرة [٤] التي تنذر بالثبور [٥]، فيتفيئوا [٦] النَعْمة الوارفة في قرارة الأمن والسعادة من جنة الإيمان، فلولا الإيمان الذي كان مفزَع الأمم في الغابر والحاضر ، ومثوى [٧] أفئدتها حين يعصف بها إعصار [٨] الويلات والمحن ، وتدكها زلازل النوازل ، لولا الإيمان ، لخلت الحياة من كل معنى إلا آليتها التي تجري مطردة ، تحسن مرة وتسيء مرات ، وترضي حيناً ، وتسخط أحياناً ، بل لولا الإيمان لما كان لإحسانها وإساءتها ولا إرضائها وإسخاطها قيمة ولا وزن . فاذا آمن الانسان فرجت له مشاكل الحياة ، وانحلت له عقدة الموت ، وفرح بعقيدة الخلود ، وثاب [٩] الى الطمأنينة وراحة الأبد . وما كان الإيمان يوماً ملكئاً عن عن التقدم إلا اذا أساء أهله استعماله ، بل الايمان داعية ملحة الى العمل والتسابق في ميادين النهضات ، إرضاء لله فيما ينفع الفرد

[١] العنت : المشقة [٢] تتنزى الى الشر : تتوثب وتسرع [٣] بآثامها [٤] اي شدة الحر والمعنى مجازي [٥] الهلاك [٦] تفيأ : تتبع الظل [٧] اي ملجأ [٨] ريح شديدة ترفع التراب من الارض بشكل مامور [٩] اي رجع

بلغني أن رسول الله (ص)، بعث أسامة بن زيد وكان يحبه ويحب اباه قبله، بعثه على جيش، وكان ذلك من أول ما جرب أسامة في قتال، وعمره نحو من ثماني عشرة سنة، فلقي فقاتل فذكر منه بأس، [1] قال اسامة، فأتيت النبي (ص)، وقد أتاه البشير بالفتح، فاذا هو متهلل وجهه، فأدناني منه ثم قال: حدثني، فجعلت أحدثه، فقلت فلما انهزم القوم، أدركت رجلاً وأهويت اليه بالرمح، فقال الرجل لا إله إلا الله، فطعنته فقتلته. فتغير وجه رسول الله (ص)، وقال: ويحك يا أسامة فكيف لك بلا اله الا الله فلم يزل يرددها علي، حتى وددت اني انسلخت من كل عمل عملته، واستقبلت الإسلام جديداً فلا والله لا أقاتل أحداً قال لا اله الا الله بعد ماسمعت من رسول الله، فهذه المعاملة بضروبها من ترغيب وترهيب، هي التي انجبت وأخرجت من هؤلاء الشباب عظماء الدنيا وسادتها وقادتها كما أبرزت منهم أنصع صفحات الإيمان والشجاعة والخلق.

ايمان الشباب وبقينهم

حين تلفظ الحياة سمائمها[2] وتنضح[3] من طبائعها فتستشري[4]

[1] اي قوة وشدة [2] جمع سموم: وهي الريح الحارة والمعنى مجازي.
[3] اي ترشح [4] تشتد وتتفاقم.

وما من غزوة أو سرية إلا وكان للشباب فيها القِدْح المعلّى[1]، ولو رحنا نستقصي بذلك أخبارهم، لملأنا بذلك أوراقاً كثيرة، وحسبنا أن أكثر حملة الألوية منهم، وأن نجد أكثر من كانوا يكتنفون النبي في كل ما يدل على مصاولة أو جهاد منهم أيضاً، فقد حرس النبي ليلة بدر أبو قتادة، وسنه نحو من إحدى وعشرين سنة، حتى دعا له فقال: اللهم احفظ أبا قتادة، كما حفظ نبيك هذه الليله، وهو الذي كان يقال له فارس رسول الله، وكان قيس بن سعد بن عبادة من النبي بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير، قال أبو عمر: كان يعني قيساً أحد الفضلاء الجلة من دهاة العرب، من أهل الرأي والمكيدة في الحرب، مع النجدة والسخاء والشجاعة، وكان شريف قومه غير مدافع، وعن عبد الله بن الزبير، أن النبي قال يوم الخندق، هل من رجل يذهب فيأتينا بخبر القوم؟ فركب الزبير، فجاء بخبرهم من بين الناس كلهم، فعل ذلك مرتين أو ثلاثاً، فلما ركب الزبير في آخر مرة، قال رسول الله لكل نبي حواري، وحواري الزبير، وعن ابن عباس: أن رجلاً شتم النبي، فقال عليه السلام: من يكفيني عدوي؟ فقام الزبير، فقال أنا فبارزه، فقتله.

---

[1] اي الحظ الأوفر وأصله: اسم لأعظم سهام الميسر حظاً.

يزدوج في الشريعة الاسلاميه العلم والدين ازدواجاً لم يكن ليظهر له من أثر في الأديان قبل ، وإذا قلنا العلم فانما نعنيه بالمعنيين جميعاً ، التثبت على ضوء الضروريات والقطعيات ، ويشير اليه قوله تعالى: «قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن» والثاني، العلم بفروع الدين وأصوله، وبما لا يمكن أن تتم إلا به وهذا يرجع إلى كل ما في القرآن والسنة من تشريع ، وكلا العلمين كان له أكبر الأثر في عقول الصحابة أما الأول فحسبه أن يكون له من الأثره في تفكيرهم، ماطهر منهم وراثات وتقاليد وأساطير، وماغرس فيهم جديداً عن طريق قوله تعالى: «قل انظروا ماذا في السموات وفي الأرض» وقوله تعالى: « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » وقوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » إلى كثير من هذه الآيات .

وأما الثاني ، وهو العلم بروح التشريع ، وأصوله وفروعه ، فهذا ما لا يجوز أن يكون للصحابة منه إلا الاحاطة والرسوخ ، أو ليس الله قد قال : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء ، أو ليسوا هم أحقّ الناس

بخشية الله ، وأولاهم بطاعته وتقواه ، إذن فهم العلماء حقاً ، الذين فهموا الدين كما يحب أن يُفهم ، ووضعوا نواة العلوم الشرعية لمن بعدهم . والذي يجلب النظر أن يكون الشباب في زمن النبي هم أسبق الصحابة لحمل هذه الراية العظمي ، راية العلم ، ولو جئنا نستقصي أعلى الطبقة الأولى وألمعها من علماء الصحابة ، لألفيناهم شباباً ، منهم علي بن أبي طالب ، وابن عباس وابن عمر ، ومعاذ بن جبل ، وأبو موسى الأشعري ، وعبد الله بن مسعود وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله بن عمرو ، وسعد بن أبي وقاص ، وأنس بن مالك . فمنهم جامعوا القرآن وهم زيد بن ثابت ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، ومنهم الذين عُنو بالفتيا ، وكانت الطبقة الأولى منهم ، فقد صنفهم ابن حزم قائلاً : أكثر الصحابة فتوى مطلقاً ستة ، عمر ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن عمر ، وابن عباس ، وزيد ابن ثابت ، وعائشة. قال : ويمكن الجمع من فتوى كل واحد من هؤلاء مجلد ضخم ، ومنهم من برع بالتأويل ، وأسباب التنزيل ، وأشهرهم علي ، وابن عباس ، ومنهم من أجاد الفرائض والحساب وبعض اللغات ، وهو زيد بن ثابت ، الذي قال في حقه النبي عليه السلام أفرضكم زيد ، ومجمل القول، إن هؤلاء القوم هم الذين قاموا بالحركة العلمية الشرعية في جميع

صنوفها في عهد النبي عليه السلام وهم الذين تولوا نشرها في الآفاق، في مكة والمدينة واليمن والكوفة والبصرة، وليس بالقليل أن نتحدث بعض الحديث عن بعض العلماء من شباب الصحابة، فلنوجز القول، ولنتحدث عن شابين في الذروة من علماء الصحابة، هما: عبد الله بن عباس، ومعاذ بن جبل، ويكفي أن نأتي بشهادة بعض الصحابة والتابعين فيهما. فأما عبد الله بن عباس فقد شهر بين الصحابة والتابعين بالبحر، حتى كان عطاء يقول: قال البحر، وفعل البحر، وكان عمدتهم في كل ما يتصل بالعلم والدين، فعن ليث بن أبي سليم، قال قلت لطاوس: لزمت هذا الغلام، يعني ابن عباس، وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله فقال: إني رأيت سبعين من أصحاب رسول الله، إذا تدارءوا في شيء، صاروا إلى قول ابن عباس. وعن الحسن، قال: أول من عرف بالبصرة عبد الله بن عباس، قال: وكان مبحثةً كثيرَ العلم، قال فقرأ سورة البقرة، ففسرها آيةً آية. وعن عامر بن سعد بن أبي وقاص، قال سمعت أبي يقول: ما رأيت أحداً أحضر فهماً، ولا ألب لُباً، ولا أكثر علماً ولا أوسع حلماً، من ابن عباس. ولقد رأيت عمر بن الخطاب يدعوه للمعضلات، ثم يقول عنك! قد جاءتك معضله، ثم لا يجاوز قوله، وإن حوله لأهلَ بدر من المهاجرين والأنصار. وقال عمر لما سئل أن

يدعو أبناء المهاجرين كما يدعو ابن عباس فقال: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول، وقال علي فيه أيضاً: إنا لننظر إلى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته، إلى أن قال: ولنعم ترجمان القرآن عبد الله وكان ابن عمر يقول: أعلمنا ابن عباس وعن الأعمش: خطب ابن عباس وهو على الموسم فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله لو سمعته فارس والروم لأسلمت. وأحسن ما نختم القول فيه ما قاله عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة حين قال: كان بن عباس قد فات الناس بخصال بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم وسيب ونائل، وما رأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله (ص) منه، ولا أعلم بقضاء أبي بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه في رأي منه، ولا أعلم بشعر ولا عربية ولا بتفسير القرآن، ولا بحساب ولا بفريضة منه، ولا أعلم بما مضى، ولا أثقف رأياً فيما احتيج اليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ما يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً. وأما معاذ بن جبل فذاك الذي ملأ اليمن والمدينة من علمه، حتى قال في حقه النبي عليه السلام أعلم أمتي بالحلال

والحرام معاذ . وعن أبي مسلم الخولاني قال : دخلت مسجد حمص فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلاً من أصحاب النبي (ص) ، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا ، لا يتكلم ، فاذا امترى القوم في شيء ، أقبلوا عليه فسألوه ، فقلت لجليس لي من هذا ؟ فقال : معاذ بن جبل ، فوقع في نفسي حبه ، فكنت معهم حتى تفرقوا ، وقال ابن حوشب : كان أصحاب رسول الله إذا تحدثوا وفيهم معاذ ، نظروا إليه هيبة له ، وكان عمر يقول حين خرج معاذ إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة واهلها ، في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت ابا بكر أن يجلسه لحاجة الناس اليه فأبى علي وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه ، فقلت : والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه وفي بيته ، عظيم الغنى عن مصره . وخطب مرة عمر بالجابية فقال : من كان يريد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، وقيل لعمر بن الخطاب لو عهدت إلينا فقال : لو أدركت معاذ بن جبل ، ثم وليته ، ثم قدمت على ربي عز وجل فقال لي : من وليت على أمة محمد (ص) ، قلت سمعت نبيك وعبدك (ص) ، يقول : معاذ بن جبل بين يدي العلماء طائفة يوم القيمة . وهذا أقل من

القليل في التحدث عن علماء الشباب ، ولو أردنا أن نعطيهم بعض حقهم من القول لوقفنا دون ذلك عاجزين .

أخلاق الشباب

من العبث ان نريد التحدث بقليل من القول عن أخلاق هؤلاء الشباب ، لأنه لم تنفرج الدنيا بعد عن أناس صلحوا للحياتين على أكمل الوجوه كما صلح هؤلاء ، وما عرف عن أتباع نبي ولا حكيم كما عرف عن أتباع النبي محمد عليه السلام ، مناعةً في الخلق ، وقوةً في النفس ، وقدرة على ضبط الأهواء ، وهذا ملاك الأمر وعموده ، وما أعتقد أن من الخير لنا ان نستفيض بالبحث كثيراً عن أخلاقهم ومزاياهم ، لأنا بذلك ننزع منزعين مختلفين ، منزعاً يؤدي بنا إلى الرضا عن واقعٍ دنيءٍ مبهرج ، تطيف به خيالات من عظمة الماضي وبطولة ممثليه ، لا يغنيان عنا فيما نحن فيه من شيء إلا التواكل والخمول ، ومنزعاً آخر يدعونا إلى جبن وخور ، ينتهيان بنا إلى يأس قاهر مميت ، حين نحاول المقارنة بين أخلاقنا وأخلاقهم ، أوبالأصح بين أخلاق شبابنا وأخلاق شبابهم ، فنرى تلك الشقة البعيدة والهوة السحيقة ؛ فأولئك قوم خرجوا من وادي الحجاز الجاف ، المنقطع عن الحياة والأحياء ، فبنوا أنفسهم

بناء في هيكل المدنية ، وشع منهم النور لى الآفاق كلها هادين مهديين ثابتين قادرين ، ونحن قوم مقامنا عند مفترق الطرق من حضارات الشرق والغرب، وليس لنا من هذه الحضارات الا سقطها[1] وحثالتها[2] عفواً! ما ينبغي لنا ان نقارن بيننا وبينهم وقد كان الأمر كذلك ، وإنما علينا ان ننبش عن عيوبنا كلما سنح لنا ذلك ، ونجتهد في الطب لها ، لئلا تدوى وتنغل[3] فتعسر علينا بعد ذلك مغبة[4] المرض ، وإذا سعينا في إصلاح الشباب ، فانما نسعى في اصلاح العنصر الحي القوي في الأمة ، فاذا كان هذا العنصر الحي مازال سادراً[5] في غُلوائه ، مسترسلاً في اهوائه ، غافلاً عن واجبه في إنعاش أمته ، يُغضي كما أغضت ، فمتى اذن ستكون نهضتها ، ومتى ستئل[6] من كبوتها .

يقولون : بأنا نحن الشرقيين عاطفيون خياليون روحيون ، فهل نحن ياترى كما يقولون ؟ حبذا لو كان الأمر كذلك ، اذن لاستطعنا أن نجاري أعظم الأمم في رقيها وتقدمها ، بل لكنا في الطليعة من السابقين الاولين . وبعد فما أحسب أنه يجوز أن تقوم حضارة ، وتنهض أمة ،

---

[1] الردي من كل شيء [2] : بمعنى السقط [3] تدوى : يزداد مرضها [4] عاقبته [5] السادر : هو الذي لايبالي مايصنع [6] تئل : تنهض .

ويستبق شعب ، إلا ويسوقه إلى ذلك قبل كل شيء خياله وعاطفته وروحه ، فالخيالُ يرسم المثل والأهداف ، والعاطفة تدفع إلى الجري ، والروح هو المحرك الاكبر ، أما وإنا لسنا من ذلك على شيء ، فنحن واقعيون بأبلغ ما في الكلمة من معنى ، واقعيون بأبشع صور الواقعية ، فبحسبنا أن نعيش ، وبحسبنا أن نأكل ونشرب وننعم بالملذات ، لنطمئن ونرضى ، وعلى الدنيا بعد ذلك العفاء ، وليس شبابنا وهم أجدر الناس بانفعالات القلب ، وخطرات النفس ، بأقل واقعيةً من غيرهم ، فلا مبادئ يحيونها ويستمسكون بها ، ولا أهداف يتأثرونها ، ولا عملاً خطيراً ينضوون تحت لوائه ، يسيطر عليهم الضعف النفسي ، وتتملكهم ميوعة الأخلاق ، وهم بين أهواء تجتاح رجولتهم ، وتيارات مختلفة تتقاذفهم ، ومنازع تضرهم ولا يدرون ، أكبر ما يتجلى في أخلاقهم سرعة التقليد ، لا تقليدِ الحيوية والجد والنشاط في شباب الأمم ، بل تقليدِ الزخارف والمباهج ، شأن الأمم المستضعفة حين تظن أنها بذلك تسعى إلى الرقي .

فعيشوا أيها الشباب حقاً في جو من الخيال والعاطفة والطموح ،

فليست تطيب هذه الأرض بهذه الأدران[1] المادية النفعية؛ عيشوا فيها، ولا يفوتكم أن تملؤوها بالحب والخير والحق والشرف والمثل العليا، فإن عجز وافعنا أن يستقل بالسمو في الروح والقداسة في الخلق والطهر في الشرف، لن يعجز جوكم الجميل أيها الشباب، أن يحملها ويُقدِّر لها قدرها، واحذروا ملء نفوسكم، أن تسطو على أفئدتكم حوادث الحال وموجبات العيش إن كانت دنيئة، فليس يفوز شعب تخذ شبابه الواقع بعُجَرِه وبُجَرِه[2] مثالاً يحتذونه، فانهم إن فعلوا، أعادوا الحياة السوآى مرات ومرات، على تقلب الأزمان وتعاقب الأجيال، واتباع السوء على العمى شر السوءين؛ بل اعملوا ثابتين آملين، عازمين على تقرير ما تستطيعون من شرف نفس عز في هذا العالم الأرضي، حتى ظن ان لم يبض هذا اللحم والدم الذي هو الانسان، شيئاً مما يسمونه في العالم النظري إنسانية وطهراً وضميراً، ولا يجرمنكم[3] هذا الأتون المستعر من الاجرام والرذيلة والطغيان المادي، على أن تيأسوا

---

[1] جمع درن: وهو الوسخ والمعنى مجازي. [2] أي بظاهره وباطنه.
[3] أي ولا يحملنكم.

وتجبنوا ، فان دب إليكم شيء من ذلك ، فذرع القبر أرحب لكم من فسحة الدهر، فاطرحوا هذا التردد، واستقبلوا الحياة بجدكم ونشاطكم، واستمسكوا بسنة الدأب والثبات ، واشربوا نفوسكم القوة في الروح والفكر والخلق، إن كنتم تحبون أن تصبحوا بحق من شباب محمد[1].

[١] القيت هذه المحاضرة في المجمع العلمي العربي سنة ١٩٤٣ .

في ذكرى المولد[1]

إذا فتح المرء سجل الانسانية ، من لدن إنسانها الأول حتى يومنا هذا ، رأى فيه من العجائب والغرائب ما يُزيغ الأبصار ؛ أمم انبعثت قوية ثم هلكت ، وحضارات صعدت شامخة ثم هبطت ، وعظماء لمعوا ثم انطفأوا ؛ وطغاة سخروا من حياة الناس فسخر الموت منهم . ملل ونحل ، ومذاهب وآراء ، اصطرعت ، فأهاجت الثورات والحوادث ودكت مدناً وأطاحت بمدنيات ، وقواد الانسانية من هذا كله إلا قليلاً منهم ليسوا شيئاً آخر عن أتباعهم وأفراد شعوبهم ، وليسوا أكبر منهم أو أعظم حظاً إلا بضخامة الألقاب ، وعظم الأحقاد ، والغلو في حب الذات ، وإلاّ بمواهب وعقول سخروها للابداع في أساليب الكيد ، والتفنن في بث الحقد الجماعي ، وزرع أنانية القوميات

ولقد طوى تاريخ البشرية معظم هؤلاء ، وطوى من آثارهم ، ولا يزال يطوي منهم ، ولم يُبقِ إلا ذكراهم بالخير أو بالشر ، وما خيرهم وما شرهم في

---

[1] القيت سنة ١٣٧٠ بمناسبة المولد في مسجد الأحمدية .

نهر الحياة المتدفق إلا زبد وغثاء يطفو حيناً ثم يذوب ويفنى .

ولولا أن في هذا السجل الانساني حياة محمد رسول الله ورسالته، لكان تاريخاً تافهاً، ليس فيه إلا الأسود القاتم والباهت الفاتر ، فحياة رسول الله ورسالته ، هما الجانب العبقري المضيء حقاً في تاريخ الانسانية ، وهما اللتان أثبتتا إمكان نزوع الانسان إلى الانسانية بأطهر معانيها ، وأصفى غرائزها ، بعيداً عن حيوانية لا تعرف إلا وجه الشر والمنكر والفساد ، وحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ورسالته هما أقصى ما تستطيع أن تنتجه الحياة من السمو والعظمة الروحية والنفسية، ومن العقل العملي الناجح الرائع ؛ ذلك أن محمداً رسول الله لم يحي لشخصه المادي إلا بمقدار ما يقوى به على إبقاء بشريته ، وإنما حي رسالة ضخمة سامية ، ففي كل حركة من حركاته ، وكل سكنة من سكناته ، وكل قولة من أقواله ، ما يصلح أن يكون ناموساً طيباً رفيعاً لأخلاق الانسان في أعدل الحدود الممكنة له .

كلا ، أيها السادة ، ما ندعي أنا نستطيع أن نقول شيئاً ولو قليلاً عن نفسيته ، ولا ندعي أن في وسع أحد مهما بؤت من البيان أن يفيها بعض حقها ، وإذا حاولنا ذلك فهي محاولة من يصف سيفاً في غمده ،

كما أشار إلى ذلك صديقه أبو بكر رضي الله عنه بقوله ما عرفتم من رسول الله إلا كما يعرف السيف في غمده ، وحسبنا أن نعرف عنه أنه رسول الله ، وحسبنا أن نذكر أنه حمل للعالم رسالة أقل ما نقول فيها : إنها ما تزال الرسالة الخالدة ، وما تزال تقارع بقوتها وحيويتها تشاريع العالم جميعه، على الرغم من أن التشاريع الكبرى في العالم، نتاج لتجارب أمم في أزمان متطاولة ، التقت فيها عبقريات العلماء ، وإرشادات الحكماء ، وآراء الفلاسفة وأفهام الساسة .

أيها الناس! ماغنى قوم مثل ماغنى المسلمون والعرب بمحمد ورسالته، وما ظفر شعب من شعوب الأرض بمثل ماظفر به العرب والمسلمون بمحمد ورسالته، ولو أنا عرفنا حقاً قيمة ما بيدنا لكنا اليوم في العالم قوة تحفظ له توازنه، بل لكنا قوة ترد العالم عن طغيانه وبغيه، إن الله سبحانه ما اصطفى محمداً برسالته في جزيرة العرب إلا لأن الجزيرة من العالم كقلب العقاب ، والشرق والغرب جناحاه ، فما كانت مهمته أن يهدي العرب وحدهم ، وإنما أن يدعو العالم كله لدعوته ، أن يدعو العالم كله إلى السلام والسعادة والأمن والنجاة !

فكم يكون سؤالنا كبيراً عند الله يوم يسألنا: ماذا صنعتم برسالة

رسولي إليكم ؟ يوم يسألنا : لقد أتى على العالم حين كان في أشد الحاجة إلى رسالة محمد رسولي ، فهل قمتم بواجبكم وأديتم الأمانة ونصحتم الأمم ؟ فما أشد خجالتنا أن نكون نحن أتباع محمد رسول الله زاهدين في هذه الرسالة مع الزاهدين ، ومنكرين لها مع المنكرين .

أيها المسلمون وأيها العرب! إن آلافاً مؤلفة من البشر تهدر دماؤهم ضحية تجارب المبادئ ، فإلى متى تستمر هذه التجارب ، وإلى متى يبني العظماء عظمتهم على جماجم الناس ؟ إن المسؤولية الكبرى تقع على المسلمين أنفسهم ، إذ أنهم قصروا في الدعوة لها ، وما الدعوة لها في الحقيقة إلا أن نكون نحن برهاناً عملياً أمام العالمين ، على أن رسالة محمد عليه السلام هي الرسالة التي تنقذ العالم من ويلاته ، وتخلصه من أهواله ، وعلى أن رسالته هي التي يلتقي عندها الشرق والغرب ، ويلتقي عندها اليمين واليسار ، « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » فإذا كان موطن رسالة محمد من العالم كالقلب ، فما أجدرنا نحن أن نكون في توزيع الانسانية والعدالة والرحمة ، وفي توزيع التشريع والتهذيب والارشاد على العالم كله ، كالقلب الحقيقي ، حين يوزع الدم والحياة في أعضاء الانسان كلها ؛ « ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا

صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » فالعرب من العالم قلب ، ولكن القلب فسد ، فلا بدع أن يفسد العالم كله .

آمنوا أيها المسلمون بالله ورسوله إيماناً كايمان أولئك الذين جعل منهم إيمانهم أمة عجز العقل بعلمه وقوته وإرادته واكتشافه واختراعه عن أن يوجد مثلهم في كل شيء . إن المؤمنين من أسلافنا أمة مثالية واقعية لأعظم ما تحلم به البشرية من الأمثال العليا للانسان الاجتماعي الكامل ، وإن الايمان الحقيقي أذاب من نفوسهم كل الأعراض الفاسدة التي إن تحكمت أهلكت الحرث والنسل ؛ فمُحصت نفوسهم وزكت قلوبهم، فكانوا لذلك خير ما يفكر به العقل الحكيم . فأروني أيها العلماء والفلاسفة والمؤرخون أيّ عصر وأي علم وأي دين وأي مذهب وأي مكان وأيّة سياسة وأية ثورة وأية حرب استطاع أن يوجد أمة كالتي أوجدها محمد عليه الصلاة والسلام، تندمج في العالم، تعلم وتعمل، وتشرّع وتنظم، وتفكر وتحارب، وتتاجر وتفقر وتغنى ، كل هذا بروح واحدة ونفس واحدة زكتها رسالة واحدة وتعهدها بالتربية رسول واحد صلوات الله وسلامه عليه .

هذه معجزة محمد، وهذه معجزة رسالته. إن تجربة واحدة لرسالة واحدة في التاريخ كله قد نجحت، وقد أخفق كل ما سواها، وما أريد التفصيل، فكلكم يستطيع ان يعلم، وكلكم يستطيع أن يوازن، فلم يبق شيء من هذا في العالم مخبوء أو مجهول.

فمولوا أيها المسلمون بأموالكم لا بأقوالكم، لأولئك الذين ملأوا أنوفنا برائحة البارود، والذين يريدون أن يضرموا في الدنيا نار الحرب لينصر كل مبدأه، قولوا لهم: عندكم! قد أخفقت تجاربكم. إن المبادئ التي تخفي في غضونها الثورة، وتخفي الحرب والويل والدمار، لبني الانسان، مبادئ في غضونها الاخفاق الذريع، وإن المبادئ التي تطوي في ثناياها الاستعلاء والاعتداء، والتسلط على الضعيف، والاستعمار بأفجع صوره وأوقحها وأقبحها، وتطوي التحلل والحرية المطلقة، لتلك مبادئ في ثناياها أيضاً الاخفاق المشين.

أيها المسلمون، ما يضعف الايمان في النفوس إلا فقدان الثقة بجدواه، فثقوا ثقة لا يعتريها شك، برسالة نبيكم وشرعته، وآمنوا إيمان الواثقين، ففي العالم اليوم ما ينبغي أن يزيدكم إيماناً برسالة نبيكم، وما يزيدكم بها ثقة واطمئنانا.

دعونا اليوم من ثرثرة أولئك الذين لا يفتأون يزينون لنا مناهج

الغرب في السياسة والاجتماع ، ويزينون لنا أخلاق الغرب ، فان كانت هذه المناهج وهذه الأخلاق ، قد عجزت جميعها عن أن توجد في الغرب أمة مهذبة ، رفيعة الانسانية ، طيبة النفس ، زكية الشعور ، وهي نتاجه وهو بيئتها ، فهي عن أن تصلحنا ، وتصنع منا أمة كما ينبغي أعجز وأضعف ، فثقوا أيها المسلمون ، برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وآمنوا بها ، فانها وحدها إذا فهمناها حق فهمها زعيمة أن تجعلنا أمة يخضع لها الشرق والغرب ، بعد أن أصبحنا ذيولاً للشرق أو الغرب ، ولتكن هـذه الذكرى في كل سنة حافزاً لنا لتجديد الهمة وتجديد الدعوة ، ومدعاة لتذكيرنا بديننا وبث الثقة به في نفوسنا ، ولتكن هذه الذكرى مبايعة لنبينا عليه الصلاة والسلام على أن نجدد بالله إيماننا وتقويه وتثبته ، فان ذكرى محمد عليه الصلاة والسلام خير ذكرى لخير نبي وخير رسالة لخير رسول .

فصلى الله وسلم على سيدنا محمد صلاة تعرفنا قدره وتبعث في نفوسنا إيماناً برسالته وهديه وشريعته .

منقذ المرأة[1]

آنساتي سيداتي :

ما أجمل أن يتنبه هذا المعهد الكريم إلى القيام ببعض واجبه في إحياء ذكرى النبي العربي محمد صلوات الله عليه في هذا الشهر المبارك، كأنه في سعيه لاحياء هذه الذكرى العظيمة، وفي الاحتفال بها، يريد أن يرمز إلى سمو الفكرة التي من أجلها وفي ظلالها فتح هـذا المعهد أبوابه يهذب التلميذات ويثقفهن ويعلمهن .

كلا ! ما أردت بهذا القول إلى دعاية، أو إذاعة محمدة ، فما أنا بسبيل ذلك ، ولكني أحب أن أشير الى ان من يثب الى تفكيره إحياء ذكرى العظماء الانسانيين والمصلحين، فهو الذي يريد أن يسلك طريقاً من الرشد والهدى والحق والخير ، فان منازع الانسان وميوله تظهر واضحة في اهتمامه بمن يوليهم عنايته، ويصرف اليهم جهده ويتجه اليهم بروحه وعقله .

---

[١] القيت في معهد النجاح للبنات سنة ١٣٦٧ بمناسبة المولد .

على انه اذا حُق للانسانية جميعها أن تحتفل بانسانها الحقبقي الأول محمد بن عبد الله ، وحق للمسلمين جميعاً أن يحتفلوا برسولهم محمد بن عبد الله ، وحق للعرب جميعاً ان يحتفلوا بذكرى تفوق العبقرية العربية في محمد بن عبدالله، فما أحق المرأة في جميع العصور والبيئات ان تحتفل بذكرى منقذها الاكبر محمد بن عبد الله (ص).

أجل كان محمد رسول الله منقذ المرأة ، بل هو وحده منقذ المرأة فمن كان يجهل ذلك فليعلم ، فما ألقى الكلام جزافاً ، وما قصد به الى التأثير الخطابي ، بل هي الحقيقة لا زخرف فيها ولا تزيين ، ولا مجاز فيها ولا تخييل ، ومن كان في ريب من الأمر ، فليرسل فكره باحثاً في لجج الماضي السحيق ، منذ العصور التي تسمى عصور التاريخ، حتى مبعث النبي محمد (ص) ، ولينظر هل يستوقف فكره رسول او مصلح، فيلسوف او حكيم ، عالم او حاكم ، استطاع أحدهم ان يشرّع للمرأة تشريعاً نافذاً يحفظ به حقوقها ويصون كرامتها ، او استطاع — على أقل تقدير — ان ينقذها من سُعار العدوان المحيط بها من الحكومة والشعب ، او ان يمسح بتلطفه شقاوتها وبؤسها ؟

أيتها الآنس والسيدات :

يعز علي – وانا احتفل بذكرى محمد منقذ المرأة – أن انحدر الى هاوية من ظلمات التاريخ لأستخرج امثلة من بأساء المرأة ، أو حياتها المعذبة ، وكم كنت أوثر ألا تسمعن مني – في كلمتي هذه – الا الصفحة المشرقة من حياة أسلافكن ، ولكن اعذرني ، فأنتن تعلمن الأ قيمة للنور الا اذا اخترق احشاء الظلام ، وقديماً كان المتنبي يقول وبضدها تتبين الاشياء فاذا كان لا يظهر نقاءَ البياض الا السواد ولا النورَ الا الظلمات ، فاسمحن لي ان اذكر لكن شيئاً قليلاً مما أُصيبت به المرأة في تاريخ شقاوتها الطويل لتعلمن شيئاً مما صنع محمد ومما أتى به القرآن .

لقد مر حين على المرأة كانت تشترى فيه وتباع ، وكانت تُملَك ولا تملِك ، وتُكره على الزواج بل على البغاء ، وكانت تورَث ولا ترث ، وقد جعل منها بعض الأقوام حيواناً بيتياً ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها إنساناً ذا نفس وروح خالدة كالرجل أم لا ، وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ، وفي كونها تدخل الجنة او الملكوت في الآخرة أم لا ، فقرر احد المجامع في رومية انها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة

وان يكم فيها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام ، لأنها احبولة الشيطان . وكانت أعظم الشرائع تبيح للوالد بيع بنته . وقد يظن البعض ان هذا كله انما صدر عن الطبقة الجاهلة من الناس ، ولكن ما يقول لو علم ان شعراء اللاتين رغم انهم افرطوا في التقصير في تلمس آثار نفسها وروحها ، وانصرفوا الى وصف جمال جسدها فقط ، فانهم جميعاً متفقون على تسميتها الشيطان الجميل ، او ينبوع المسرات السامة ، أما شعراء اليونان ، فكانوا يسمونها : بلية العالم . وان ننس فما ننسى الفيلسوف اليوناني الكبير افلاطون الذي ملأ الدنيا بمُثُله ، وشغل العالم بمبادئه ، وبذل روحه وقطر نفسه لاسعاد الناس ومحو شقائهم ، افلاطون كل هذا وأكثر ، لم يكلف نفسه قط ان يستشف أخلاق المرأة ولا ان يتعرف عقليتها ، ولو انه وقف هنا لالتمسنا له عذراً ، ولكنه قضى حياته آسفاً لأنه ابن المرأة ، وكان يصرح بازدرائه بأمه . هذا لون ضئيل من ألوان عسف المرأة واضطهادها ، قبل محمد رسول الله (ص) ، وكان احسن مواساة تلقتها المرأة قبل مبعث النبي ، هي التي قدمها لها الشعب الفرنسي ، وذلك حين اجتمع مجمع ما كون في فرنسا بعد ميلاد النبي (ص) بنحو خمس عشرة سنة وجعل يبحث

هل المرأة انسان ؟ ثم قرر المجمع بعد خلاف وجدال انها نعم انسان ولكنها خلقت لخدمة الرجل .

هذا مجمل رأي العالم المتمدن في المرأة ذلك الحين، أما العالم العربي قبل محمد فقد كان اكثره يمتهن المرأة ويحتقرها، بل كان يرى بعضهم ان وأدها (أي قتلها حية) وهي صغيرة أجدى وأشرف ، وكانوا اذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء مابشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ساء مايحكمون

ففي وسط هذا العالم التائه في ضلاله، الذي كان الرجل فيه يتحكم بحق الحياة وحده ، يتعزز بنفسه ويستضعف قيمة المرأة؛ في وسط هذا العالم الطافح بالشر ، الممتلئ بالرذيلة الطاغي بالقوة . طلع محمد (ص) على الناس بالكتاب المبين الذي لا ريب فيه يبلغ الناس قائلاً :

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » .

وقائلاً : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء » .

وقائلاً : « وهو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها » .

استمعن أيتها الآنسات والسيدات ! الى هذه الآيات التي تهدم اول ما تهدم طاغوت الانانية في الرجل الذي كان لا يرى من يستحق البقاء ويستحق التكليف ويستحق مخاطبة الاله ويستحق الدرجات العليا في جنات النعيم غيره. كلا! فليس هناك ذكورة وأنوثة ، او بتعبير آخر ، ليس هناك فضل لذكر على أنثى ، ولا لأنثى على ذكر ، فهما سواء في تأدية ما وكل اليهما ، وليس التفاضل بالجسم او بالوزن ، او باختلاف الخلق ، انما التفاضل بالتقوى ، فأيهما سبق في اعمال البر ، واجتهد في بث الخير ، واستطاع ان ينفع الناس ، فله الفضل وله المثوبة وله جنات النعيم ذكراً كان او انثى . فالمرأة عند الله أخت الرجل لا يتفاضلان إلا بالتقوى . وفي الحديث : كان رسول الله يقول : « إنما النساء شقائق الرجال » ولذلك ساوى الله بينهما في الايمان والتكليف كما ساوى بالجزاء في الآخرة من ذلك قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وقال تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر او أنثى وهو مؤمن

فأولئك يدخلون الجنـــة ولا يظلمون نقـــيراً » .

ولم يقتصر محمد عليه السلام على مساواة المراة بالرجل في التكليف، بل ساواها به في العبادات الاجتماعيه ، فقد أباح لهن أن يحضرن صلاة الجماعة والجمعة في المساجد ، وأباح لهن حضور العيدين ، ولكن لم يوجب عليهن ذلك تخفيفاً ، لأن للمرأة موانع من ولادة وتربية أولاد وغير ذلك تمنعها من ممارسة عبادتها في المساجد . ومما أوجبه عليها من العبادات الاجتماعية ، الحج ، فهو مفروض عليهـا كالرجال اذا توفرت لها أسبابه .

سيداتي وآنساتي . إن محمداً عليـه السلام اعتبر كن من الرجال فرسي رهان . والمساوات في العبادات والمعاملات ، دليل على التساوي في المواهب ، والتساوي في قبول الخير وفي نشر الهداية . على أن الله شرع لكن من الأمور الاجتماعية ماهو اكثر من ذلك : قال تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، اولئك سيرحمهم الله ان الله عزيز حكيم » فأثبت الله لكنّ الولاية ، وهي تشمل ولاية الأخوة والمودة والتعاون المالي والاجتماعي ،

وتشمل النصرة الحربية والسياسية . ولئن أسقطت الشريعة عن النساء وجوب القتال بالفعل ، لقد طلبت إليهن ان يخرجن إلى الجهاد ، يضمدن الجرحى ، ويسقين الماء ، ويجهزن الطعام ، ويحرضن على القتال ، وقد ثبت أن بنت رسول الله (ص) فاطمة ، كانت تحمل قرب الماء هي وأم سليم وغيرهما الى الجرحى ، في غزوة احد يسقينهم ويغسلن جراحهم ، ولما جرح رسول الله (ص) في هذه الغزوة تولت فاطمة غسل وجهه وتضميده .

أيتها الأوانس والسيدات ! إن أمامي أفقاً رحيباً من النصوص تدل كلها على رفع شأنكن ، وعلى العناية بأمركن ، ولولا خوف الاملال لأتيت على ذكر شيء من ذلك ، ولكن لا بد لي من أن أتحدث عن بعض الأمور التي ظفرت بها المرأة زمن النبي (ص) والتي لم تظفر بها امرأة قط قبل مبعث النبي

هل سمعتن في التاريخ أن المرأة كانت تحمي الرجال وتجيرهن ؟ فاذا علم الناس ذلك احترموا جوارها وأذعنوا لحمايتها ، فلا يمس من أجارت أحد ، وليكن من أقوى الناس .

قالت ام هانىء للنبي (ص) يوم فتح مكة : إنني أجرت رجلين من أخمائي ، أي هما في حمايتي ، فقال لها النبي (ص) قد أجرنا من أجرت

يا أم هانىء . وفي الحديث، أن النبي (ص) قال : إن المرأة لتأخذ للقوم ، يعني تجير على المسلمين . وقالت عائشة : ان كانت المرأة لتجير على المؤمنين فيجوز ، ونقل ابن المنذر ، أن المسلمين أجمعوا على صحة إجارة المرأة وأمانها أي اذا أمنت أحداً ولو كان كافراً لايستطيع أحد الاعتداء عليه ، ولتكن المجيرة أيّة امرأة .

وهل سمعتن في التاريخ، أروع من هذه الحرية في حدودها المعقولة التي تمتعت بها المرأة زمن عمر بن الخطاب ، وكان أمير المؤمنين ؟ وقف يوماً على المنبر ونهى الناس ان يزيدوا المهور على اربعمائة درهم فاعترضته امرأة وقالت : أما سمعت ما أنزل الله ؟ يقول (وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) فقال اللهم غفراً ، كل الناس أفقه من عمر وفي رواية قال : امرأة اصابت وأخطأ عمر .

هذا وقد ساوى النبي (ص) بين المرأة والرجل ، في مبايعاته ، أي في عهوده فكان يبايع النساء على أمور في صالحه وفي صالحهن ، والجميل في هذا أن القرآن سجل مبايعة النساء، ولم يسجل مبايعة الرجال، فقال « يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه

بين ايديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف، فبايعهن، واستغفر لهن الله ، إن الله غفور رحيم » .

وإلى هنا أتوقف لا لأني استطعت أن انهي موضوعي ، ولكني سقت هذه الأمثله للدلالة على شرفكن وقيمتكن عند النبي صلوات الله عليه ، وكيف رفع منكن شأناً كان من قبل وضيعاً ، وعرف العالم أجمع أن المرأة لا تفترق عن الرجل إلا باعتبارات تقتضيها مصلحتها ومصلحة المجتمع. فاذكرن أيتها الأوانس والسيدات نبيكن محمداً (ص) أباً لم تظفر الانسانية بمثله ،واذكرنه معلماً ومهذباً ، واذكرنه منقذاً لكنَّ ، في وقت عم البشرية الظلام ، واذكرنه حين انعش براعم نفوس أسلافكن فتفتحت وأشرقت على الدنيا ، ونالت من العلم والفهم والعقل مالم تنله امرأة في غابر ولا في حاضر .

* * *

مواثيق الاسلام[1]

قال الله تعالى في كتابه الكريم: بسم الله الرحمن الرحيم

« والعصر إن الإنسان لفي خسر إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر» يودع الدنيا كلّ عصر فوج من البشر، وتستقبل الدنيا فوجاً غيره ، منذ ابتدأ الله عز وجلّ هذا الخلق حتى جيلنا هذا ، وكل جيل يأتي يفكر فيما يجعله في هذه الرحلة القصيرة من عمره ، أنعم بالاً ، وأسعد سفراً ، وأطيب نفساً . ولكنه مع الأسف مااستطاع أن يفعل شيئاً من أجل ذلك . وما كانت حصائد تفكيره في السعادة والأمن والسلام ، لتحقق له شيئاً منها ، بل ما كانت التجارب والعظات في كل جيل ، لتحدث أثراً يذكر فيمن بعده ، بل كان كل تفكير وتجربة وعظة يفنى ويتلاشى بفناء الجيل الذي انبعثت فيه ، وكأن لكل جيل من الناس بل لكل إنسان تجاربه الخاصة به ، تموت بموته ، ولا ينتفع منها أحد بشيء .

---

[١] ألقيت في الاذاعة السورية .

هذا هو الإنسان المسكين الذي يتعثر في طريق حياته، ما يستفيق من كبوة إلاّ ليسقط في كبوة، حتى لكأنه في كثرة العثرات يقطع هذه المرحلة مرحله العمر حبواً، ولقد عجز عن انتشاله مما هو فيه، فلاسفته وحكماؤه وعلماؤه، ملوكه ورؤساؤه وقادته، وأنّى لهم ذلك؟ وقد عجزوا هم عن تخليص أنفسهم. بل كانوا من حياتهم في بلائين؛ بلائهم من أممهم وبلائهم من أنفسهم، هذا هو الانسان الخاسر على اختلاف شعوبه وقبائله، وعلى اختلاف أزمانه وأقاليمه وبيئاته، وعلى اختلاف رقيّه وانحطاطه، لكل قبيل ألوان من الخسران، إن اختلفت في ظاهرها فهي في الجوهر سواء، وقد يكون الخسران أحياناً على قدرما للأمة من مظاهر النور والحضارة والمدنية. وإلا فأنبئونا أي نوع هذه الحروب التي يصلاها ملايين البشر، ضحية ما يزعمون من المبادىء، وهي بغير التواء وحشية الانسان القديم الكامنة في أردية الإنسان الحديث.

الانسان - لاشك - في خسر، كما أقسم عليه الله سبحانه في كتابه العزيز خسر يؤلف بين أشتات من البلاء والخزي والعار والشر والأذى، فهل لهذا من آخر؟ وهل لصق هذا الخسران بالإنسان واتحد معه حتى لا يستطيع الفكاك منه. إن الله سبحانه لم يقنطنا من إمكان التخلص من

الخسر . بل أعطانا نموذجاً من الانسان نجا من الخسران ، وأعطانا صفاته الكاملة في غاية من الايجاز والوضوح والقوة في قوله تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) . هذه أربع كلمات، ضمّت في ثناياها الضمان الكامل لتفادي الخسران ، ضمّت في ثناياها أروع الآيات لتحقيق المثل الانسانية، ولتحقيق التعاون المشترك ، ودوام هذا التعاون مادام مؤيداً بالحق والصبر، ومهما يحاول أقطاب الفكر أن يعدوا من مشاريع، ويصوغوا من مواثيق، ويعقدوا من اجتماعات في في سبيل تحقيق السلام ، وفي سبيل تآخي الشعوب ونزع ما بينها من خصام ، فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً ، وسيدورون من نتاج تفكيرهم في حلقه مفرغة، ينتهون من حيث يبتدئون، ويبتدئون من حيث ينتهون، أو يعودوا أدراجهم إلى هذه الكلمات الأربع : «إلا الذين آمنوا، وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر» وما كان الله في هذا ليكلفنا فوق ما نطيق، فإذا تجرد الإنسان من أهوائه قليلاً ، كان تنفيذ هذه التواصي سهلاً على كل انسان ممتعاً له . فالايمان بالله ، الايمان بوجود قوة غالبة وراء هذه المادة، تشعر الانسان بضعفه وتخفف من غلوائه، وتشذب بمقدار عمقها فيه من حيوانية ، حتى يبدو إنساناً مهذباً ، شعوره بغيره كشعوره بذاته،

يفسح له المجال لممارسة حقه في الحياة كما يفسح لنفسه. حتى لتصل به الحال إلى أن يكون اهتمامه بنوع الإنسان أكثر من اهتمامه بفرد من أفراده، يفرح لمسرته، ويستاء لمساءته. والإيمان بالله هو الذي يوجد للحياة معنى وغاية، وإذا فقدت الحياة معناها وغايتها كانت آلية لا تستحق الاكتراث، بل لا تستحق البقاء والعناء، وبالإيمان بالله تنفرج مشاكل العيش، وتحل عقدة الموت، ويثوب الإنسان إلى الطمأنينة وراحة الأبد، فالإيمان أساس متين لتثبيت دعائم الاستقرار في هذه الدنيا، وإشاعة السلام والرضا والنعيم بين أبنائها، ولذلك ابتدأ الله به في قوله: إلا الذين آمنوا، ثم أردفها بقوله تعالى: وعملوا الصالحات. وليس المراد من العمل الصالح هذا المعنى الضيق وحده من أوراد وطقوس وعبادات، وإنما المراد أشمل من ذلك وأعم، ولذلك وردت كلمة الصالحات بصيغة الجمع، لتشمل كل صالحة يقدمها المرء لنفسه، ويقدمها لغيره من الأفراد والمجموع، على حسب قدرته، وعلى حسب ما رزقه الله من عقل وذكاء وعلم وتجربة. فالسياسي المخلص، والعالم العامل، والمخترع والمكتشف، والاقتصادي والتاجر وكل ذي صنعة، هؤلاء جميعاً وغيرهم ممن يعملون الصالحات، إن أرادوا بأعمالهم نفع الناس مخلصين، ولم يألوا في ذلك جهداً. فالعمل الصالح إذن

قيام بحق نفسك ، وقيام بحق غيرك ، وقيام بحق المجموع ، وقيام بحق الله عز وجل . والكلمة الثالثة من الميثاق الخالد قوله تعالي : وتواصوا بالحق .هذه الكلمة الصغيرة وحدها ميثاق كامل عظيم ،تغني عن كل ماوضع من مواثيق وعهود ،ومن حكم وعظات ،فاذا تواصت الأمم كلها بعضها مع بعض في اتباع الحق صريحاً غير مدخول ، واعطيت الشعوب صغيرها و كبيرها حقها في تقرير مصيرها بالفعل ، وفي أن تعيش وراء حدودها وفق رغباتها من غير إكراه ، وإذا تمتع الفرد بحقه في الانتفاع بحريته فى موطنه ، من غير أن تطغي حريته على حرية الآخرين ،إذا كان كل ذلك ، قضينا على جميع أسباب المنازعات والخصومات بين الافراد والشعوب ، فالقناعة بالحق فيها كل الخير ، ومن طمع بحق غيره ، فقد زرع الشر ، ومن زرع الشر ، لابد وان يحصده ، ولقد ختم الله تعالى مواثيقه الثلاثة بقوله : وتواصوا بالصبر . والتواصي بالصبر ملاك الأمر كله . إذ به يمكن تثبيت استمرار هذه الكلمات الثلاث ، وتوثيق عراها . وما يستقيم أمر بغير الصبر ، والانسان في اقبال الخير والشر عليه ، محتاج إلى الصبر ، فصبره على الخير في الاحتفاظ به سليماً من دواعي النقص أو التقصير ، وصبره

عن الشر ليبقى بعيداً عنه ، محترساً من الانجذاب إليه .

والانسان مما ركب فيه من غرائز حيوانية نزّاع إلى الظلم والتعدي والسطوة واستحلال ماحرم عليه ، فان لم يضبط من أهواء نفسه ، ويحرص على إنامة غرائزه بالترويض والصبر ، ثارت أهواؤه واستيقظت غرائزه ، فهدم ماباناه وعاد سيرته الأولى فالايمان بالله وعمل الصالحات والتمسك بالحق ، كل أولئك محتاج إلى الصبر لتثبيته وإدامته ، والصبر ـ كما يقول ابن المقفع ـ صبران ، صبر الرجل على مايكره ، وصبره على مايحب ، فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطراً . ويقول أيضاً : واعلم أن اللئام أصبر أجساداً ، والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وقاحاً ، أو رجله قوية على المشي ، أو يده قوية على العمل . ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللامور محتملاً ، وفي الضر متجملاً ، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً ، وللحزم مؤثراً وللهوى تاركاً ، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفاً ، وعلى مجاهدة الاهواء والشهوات مواظباً ، ولبصره بعزمه منفذاً .

ياأيها المسلمون ، وياأيها الناس جميعاً ، هذا ميثاق الله اليكم فاعملوا

جاهدين حتى تحققوه فاذا حققتموه، فقد ظفرتم بكل شيء مما تطلبون، ظفرتم بالسعادة والطمأنينة والأمن والسلام أفراداً ومجتمعين

أيها المسلمون رددوا كل يوم على اسماعكم وأفكاركم وقلوبكم ونفوسكم قول ربكم تعالى :

والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

الصراط المستقيم (١)

قال تعالى :

« وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون .

مسكين هذا الشرق التعس ، فلقد كان مشرق النور والحضارة والحياة للعالم كله ، ثم أمسى وقد استغرق بنوم طويل في ليل مدلهم ، أورثه ضعفاً وذهولاً وخوراً ، حتى رضي بواقع اليم ، واستمهد الذل ، واستكان للمصيبة ، فنسى نفسه ، ونسى ماضيه ، ونسى مقومات حياته ، ونسى أثره في العالم ، ولولا هذه الهزات العنيفة التي تتوالى لبقي الشرق المسكين مستسلماً لنومه الخابل ، ولكن في هذه الهزات الداوية ما يبعث الميت ، ففتح هذا الشرق عينيه بين اليقظة والمنام ، ونعوذ بالله أن تكون يقظة الشرق اليوم يقظة المخبول ، ما يستيقظ الا لينام ، وما ينام الا ليموت . لقد فتح الشرق عينيه ، ورأى من حوله أمماً

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

تريد ان تنقض عليه ، لتخلبه مستيقظاً ، كما استنفدت دماءه نائماً ، ولكنه يا للأسف ما زال لايدري كيف يتقيها ويحذرها ، ولا كيف يدفع كيدها عن كيانه ، والاغرب انه شغل بفرحة هذه اليقظة الخطرة ، التي أتت بعد نوم طويل عن كل استعداد لتثبيتها واستمرارها في حال تريد هذه الامم المفترسة ان تغتنم هذه الفرصة المواتية فرصة ذهوله وحيرته ، لتعين له طريقة التي يسير فيها ، بعد ان استوى واقفاً يريد المسير ، وترى هذه الامم ان استعداده خير استعداد لاقتفاء آثارهم ، لاقتفاء الآثار التي يرسمونها له ، لالفائدته ومصالحه بالطبع ، بل لفائدتهم ومصالحهم . وتتجاذبه اليوم قوى مختلفة متضادة احياناً ، متقاربة احياناً أخرى ، حتى لنخشى من شدة الجذب ان تُقطَّع اوصاله فتأخذ كل أمة منه نصيبها ، وما نصيب الامم منه في هذا العصر ، أرضاً تقتطعها منه ، أو أمة تستعمرها ، فقد قضى هذا العصر على هذا النوع من السيطرة ، وانما نصيبها منه ، ان تستولي على أفكاره ، وتجذب نحوها هواه وشعوره ، وتملك عليه وجهته وأمره ، فيتبعها مطاوعاً منقاداً ، عن رضىً منه واختيار ، وما تفيده بعد ذلك يقظته ؟ بل ما يفيده استقلاله وكثرته ؟ وقد اضاع روحه ، وبدد شخصيته

وأغرى به الطامعين الذين بدلوا استعماراً باستعمار ، وسيطرةً بسيطرة .
وما استعمار الافكار والمشاعر الا نوع من الاستعمار الفظيع الذي يرتدي رداء الحرية الكاملة ، فيخيل للشعوب عزتها ويرضى كبرياءها ولو فطن الشرق حقاً لعلم ان الاستعمار القديم ليل له آخر ، ثم ينبلج بعده صبح السيادة والحرية ، أما الحديث فهو ليل يخفي الويل ، وما ينتهي الا ليبدأ ، وما هذه الافكار التي يغزوننا بها ويريدون منا ان تكون افكارنا ؟ انها ليست في اكثرها خيراً ، فقد خلت من معاني الشرف والسمو ، ومعاني الرحمة والاحسان ، ومعاني الحق والعدالة وزادت بها شرور العالم وويلاته ، وهي لا تهتم الا بالحياة الراهنة التي تتعلق بالامة صاحبة الشأن ، أما أن تهتم بالصالح الانساني لغاية انسانية ، فهذا منها أبعد من رجعة الماضي ، إذن فاذا يدعوننا لاتباع آرائهم ، والتغني بأفكارهم ، ألأن افكارهم وآراءهم أثارت الحرب الطاحنة الساحقة ، بشكل عالمي مرتين في ربع قرن ؟

لا يا أيها الشرق ! يا منبع الخير ، ويا مفيض الرحمة والانسانية ويامعلم العالم ، لئن كان الغرب قدافسد رسالتك المثالية بماديته ، ماينبغي ان تعود اليه تلميذاً تلقفُ منه هذه الرسالة الفاسدة ، فاذا لقفتها منه

وأصبحت مثله فمن نرجو بعد ذلك لانقاذ العالم من ورطته ؟ ان العالم اليوم لاينقذه ماكان سبباً لدماره ، وما يحييه ماكان سبباً لموته ؛ انما ينقذه ويحييه رسالتك أيها الشرق ، رسالة الروح التي توحي ان ليست الحياة مادة كلها ، وليست الحياة مدفعاً ولا طائرة ولا سلاحاً كلها ، انما الحياة حياة الدعة والاطمئنان والاستقرار ، حياة السمو والصفاء والرضى ، وما تكون الحياة كذلك ، الا اذا سيطرت الروح ، وتحكمت في آلية العقل والجسم وماديتهما ، فكيف تدع ايها الشرق هذه الرسالة العظمى لتأخذ من الغرب بدلها رسالة خاسرة ، رسالة تستبيح أن تأخذ من الفقير لقمته ، ومن الغني نعمته لتدخر من السلاح ماتتخم به الارض بالقتلى ، وتفعمها بالتدمير . هذه الرسالة هي رسالتهم العمليه جميعا ، ان اختلفوا في اسمائها فما اختلفت هي في حقيقتها ، لافرق بين اولئك الذين يظهرون الحدب على العامل والفقير والفلاح ، وبين اولئك الذين يظهرون بمظهر الحرية والديمقراطية ، كل هؤلاء سواء ، وكل يعمل جاهداً ، ويتملق البشر انه على الحق ، وانه اولى بان يؤيده الناس ويؤازروه ، وهم جميعا انما يعملون لانفسهم لا للناس ، بل الحقيقة انهم يعملون لفئة من الحاكمين ومن لف لفهم

ابعد كل هذا يجوز لهذا الشرق المسكين ان يدع رسالته الرائعة ويبدد شخصيته الكبرى ليتبع اولئك الذين لايجدون مما هم فيه ملجأ ولا منجى .

ميزة الغرب ايها الشرق ذاتيته التي استمدها من قوته ، والتي يفرضها علينا ، ونقبلها نحن مختارين طائعين ، رغم انها ذاتية قد تكونت من الفكر الصالحة والفاسدة على السواء ، ونقبلها نحن جميعها من غير ماتفريق بين صالحها وفاسدها ، فاذا أردنا أن نقلد الغرب بحق فلنقلده في شيئين ، في وجهته العلمية والعملية ، وفي شخصيته ، أي أن تكون لنا شخصية قوية ، تقابل شخصيته ، وما تكون انا هذه الشخصية ، الا اذا تمسكنا بمقوماتنا القديمة وتاريخنا ، وإلا اذا استوحينا في حياتنا في فروعها كلها ديننا وتشريعنا ، فاذا جمعنا بين علم الغرب ودين الشرق ، فقد تمت لنا ذاتيتنا ، وتم لنا استقلالنا وحريتنا ، واذا قدرنا على ذلك ، فالمرحلة التالية ان نعد العدة لنغزو الغرب بروحنا ، لعلنا نستطيع أن نلقح ماديته بروحنا ، كما يلقح روحنا بماديته ، فيتم التساوق والتقارب ، فيكون بذلك نجاة العالم ، فان لم تتحقق لنا شخصيتنا وبقينا نتبع الغرب حتى فيما يشكو ويود التخلص منه ، فنحن عبيده

ان لم نكن بالاستعمار والقوة فنجن عبيده بالانقياد والاتباع .

فيا أيها الشرقيون ويا أيها المسلمون ، لاتتغنوا بآثار اولئك الذين يستبيحون ارضكم ونفوسكم ، ثم لايبالون بكم شقيتم أم سعدتم بل استمسكوا بتشريعكم ودينكم ودستور قرآنكم :

قال تعالى « وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصيكم به لعلكم تتقون .

الحياة والنور [1]

قال الله تعالى :

أومن كان ميتاً فاحييناه ، وجعلنا له نوراً يمشي به في الناص ، كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون) .

هذا مثل من امثال القران الرائعة ، رمز به الله سبحانه وتعالى الى نوعين من البشر ؛ نوع بث الله فيه الحياة بعد ان كان ميتاً ، وقذف في قلبه النور ، ونوع غمره الله في الظلمات حتى لا يشعر ان في الحياة غيرها فهو راض بها ، بل قد زينت له فرآى بها متعة وهناءة ، فاستقر بها واطمئن . وما أراد الله سبحانه بالحياة هنا ، الحياة التي تفصل الحيوان عن الجماد ، ولا بالنور الذى يشع عادة ويضيء ، كما لم يرد بالظلمات تلك التي تحدث عند اقبال الليل وادبار النهار .

وانما أراد سبحانه وتعالى ان يضرب الحياة مثلاً ، للايمان الحقيقي

---

[١] القيت في الاذاعة السورية

الذي يبعث في الانسان الحيوية والقوة والارادة والصبر ، ويوجد النزوع الى العدل والحق والخير ، ويوقظ المكرمة والشرف والمروءة .

فاذا فقد انسان هذه الصفات وامثالها ، فكأنما فقد الحياة ، وما الحياة الخالية من معاني الحياة إلا موت خلا من صورة الموت ، ولكن فيه معناه .

وقرن سبحانه الحياة بالنور في قوله : « وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس » ليضرب به المثل على استمرار الهدايه بعد الايمان ، وانكشاف الحقائق بعد خفائها ، ثم تميز الشر عن الخير ، والقبيح عن الحسن ، وتبين الحق من الباطل ، والخير من الشر . فالحياة والنور ، على ما أرادهما الله ، هما يوجدان الانسان النافع الصالح للحياتين ، الانسان الذي يسير دائماً بنفسه وامته الى الامام ، لا يعرف الوقوف لانه مملوء بالحياة والقوة ولا يعرف الضلال ، لان الله جعل له نوراً يمشي به في الناس .

ولقد جعل الله في مقابل الحياة والنور للمؤمنين ، الظلمات لغيرهم ، وضربها مثلا لمن كان في عماية من ظلمة الجهل والهوى ، وظلمة الضلالة والعمي ، وظلمة الكفر والموت ، ولذلك جمعها الله في قوله . كمن مثله في الظلمات ، ولم يقل في الظلمة لتجمع اموراً كثيرة ؛ وفي الظلمات

دلالة على الموت مع توضيح اسبابه ، ومن يقمْ في الظلمات ولا يخرجْ منها ، لايدرِ ما الحياةُ وما النور فهو - لاجرم - ميت وان كان في الاحياء .

واقد جمع الله بين الحياة والنور في آيات كثيرة ، منها ما صُرح به بلفظ الحياة والنور ، ومنها ما كنى به عنهما ؛ قال تعالى ، « وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان . ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم » جمع الله في هذه الآية بين الروح الذي به تكون الحياة ، والنور الذي به يكون الاشراق . وأخبر ان كتابه الذي انزله على رسوله (ص) متضمن للأمرين . فهو روح تحيا به القلوب ونور تستضيء به وتشرق ، وكنى الله تعالى في آية اخرى عن الحياة بالماء ينزل من السماء فتسيل به الأودية . وكنى عن النور بالنار لانها مبعثة ، وان كلاً منهما يحتمل زبداً رابياً لا ينفع الناس قال تعالى : « وهو الذى انزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فاما الزبد فيذهب جفاءً ، واما ما ينفع الناس فيمكث

في الارض كذلك يضرب الله الامثال» يضرب الله المثل لوحيه بالماء؛ فكما يحيي الله الارض بالماء، يحيى القلوب بالوحي والقرآن ، وضرب المثل بالنار لان بها الاضاءة ، شبه ما تحمله القلوب من الشبهات والشهوات حين يفجؤها الحق واليقين بما يحتملة السيل وبما يوقدون عليه ، من الزبد ، ثم ذكر العبرة من المثل فقال : فاما الزبد فيذهب جفاء ، واما ماينفع الناس فيمكث في الارض .

فالحياة والنور اذن هما رمزا دعوة الله ورسوله ، فهذه الدعوة نابضة بالحياة بأقوى معانيها ، مترعة بالنور بأشرف خصائصه ، وما يلبيها ويستجيب لها الا الطامع بالحياة وعنده قابليتها ، قال تعالى : « ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حياً » وقال تعالى « يا ايها الذين آمنوا استجيبوا الله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » ولامر ما جعل الله وحيه الذي يلقيه الى انبيائه روحاً ، قال تعالى « ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء من عباده » وقال تعالى « وكذلك اوحينا اليك روحاً من أمرنا » ولقد جعل الله من لا يستمع لدعوة الرسول ميتاً، حين خاطب رسوله بقوله « ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور » .

فالاسلام حياة ونور ، فاذا فقد مسلم الحياة والنور فهو دعيّ ألصق نفسه بالاسلام إلصاقاً ، ولا يرضى الله ولا رسوله أن ينسب اليه من خلت نفسه من معنى الحياة وخلا قلبه من هداية النور .

وليس يكفي ان تقنع من الاسلام بهذه الألوان الظاهرة من الأشكال والأقوال لتكون من أهل الحياة والنور ، وانما ينبغي ان تبدو منا قوة الحياة وحرارتها وفعاليتها، وان يلتمع أمامنا نور الهداية يرشدنا اذا ضل الناس الطريق .

وما الحياة والنور اللذان ضرب الله المثل بهما ، هما المتمثلان في هذا العصر ، فالعصر الحديث لايحمل من الحياة الا ماديتها وبغيها وطغيانها ولا يفهم للحياة معنى ، إلا ان تحاول كل أمة الاستئثار برغد العيش، وسعة السلطان . على انها لاتحمل من النور ايضا إلا ذلك البهرج الظاهر الذي يشغل الاحاسيس ، ويستهوي الميول والشهوات ، أما ذلك النور الذي يحمل معنى الانسانية والرحمة والعدل وحب الخير ، والايثار والنصفة ، فلا نستطيع ان نلتمس له في هذه المدنية أثراً يذكر

كلا لم يدعنا الله لهذا النوع من الحياة والنور، وانما دعانا الله سبحانه للحياة الحقيقية والنور الحقيقي اللذين جاء بهما رسول الله من

عند ربه فقلب بهما اوضاع أمة كاملة رأساً على عقب ، وصنع بهما أحياء قادرين ، بعد أن كانوا يتدرجون الى الفناء ، وفوق ذلك فقد جعلهم القرآن انشط أمم الدنيا بالسبق الى بناء الحضارة ولكن مع اسمى معاني الانسانية، واقدس معاني الحق والعدل والحرية

فعلى المسلمين جميعا ان يجدوا نفوسهم، ويجددوا عزائمهم ،ويتجهوا بقلوب مملوءة شوقاً إلى ذلك المنبع الذي لا ينضب معينه ، كتاب الله الذي تفور منه الحياة ويشع منه النور ، والذي له من القدرة وحده ان يبعثنا من مرقدنا هذا ويكشف عنا ماغشينامن ظلمات في احقاب طوال . القرآن وفهمه والعمل به ، خير ضمين لبث روح النهوض في كياننا الفردي والاجتماعي . فالى هذه الحياة ، والى هذا النور ايها المستمعون ، وإلى العمل على كشف هذه الظلمات المحيطة بنا ، والى اللحاق بذلك الركب الذي يرمقنا بعين مملوءة اشفاقاً وتلهفا ، قبل أن نتمنى ذلك فلا يتاح لنا ، وقبل أن يأتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الثبات على المبدأ (١)

قال تعالى :

قل ياأيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ، ولا أنتم عابدون ما اعبد ، ولا انا عابد ماعبدتم ، ولا انتم عابدون ما اعبد ، لكم دينكم ولي دين .

روي ان الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، والاسود بن عبد المطلب ، وأمية بن خلف ، وغيرهم من صناديد المشركين ورؤسائهم ، اتو النبي (ﷺ) فقالوا له : تعال حتى نعبد الهك مدة ، وتعبد آلهتنا مدة ، فيحصل بذلك الصلح بيننا وبينك ، وتزول العداوة من بيننا ، فان كان أمرك رشيداً أخذنا منه حظاً ، وإن كان أمرنا رشيداً أخذت منه حظاً ، فنزلت هذه السورة رداً عليهم ، كما نزل في هذا الشأن أيضاً قوله تعالى : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون ، ولقد أوحي اليك وإلى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ، وما

---

(١) القيت في الاذاعة السورية .

وماقدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيمة ، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون » .

يعلمنا الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة التي قد نمر عليها مسرعين ، الثبات على المبدأ ، والجهاد دونه ، والتضحية بكل شيء في سبيل صيانته والمحافظة عليه ، ويعلمنا أيضاً ان نصدع به من غير مواربة ولا خنوع ولا تردد، هؤلاء زعماء قريش من المشركين جاؤوا يعرضون على النبي (ﷺ) أن يشركهم في عبادتهم الباطلة ، وان يشركوه في توحيده وعبادته ، او بالاصح يرضون عليه أن يكون هو ومن تبعه انصاف موحدين ، وأن يكونوا هم ومن وراءهم انصاف وثنيين ، ليتفادوا بهذا التدبير الفتنة ، ويحقنوا الدماء في الظاهر ، ويختبروا إيمان النبي عليه السلام برسالته ، ومقدار تعلقه بمبدئه في الباطن ، ومن يستجب لمثل هذا التدبير فقد آمن بامكان أن يكون المرء نصف صادق ، أو نصف مؤمن ، أو نصف موحد ، ومن آمن بذلك فقد سخف وجبن، وطعن الى ذلك الصدق والايمان والتوحيد، ودعا إلى التحلل والميوعة في الاخلاق الثابتة ، لذلك انزل الله على نبيه الجواب على عرضهم حاسماً صريحاً قوياً ، بقوله : قل : يامحمد لهم « يأيها

الكافرون» بالآهي الواحد الصمد «لا اعبد ما تعبدون» من هذه الاوثان التي لا تضر ولا تنفع، بل لا تملك لنفسها ضراً ولا نفعاً «ولا انتم عابدون ما أعبد» إلهاً بيده الأمر كله، لاصراركم على التمسك بما وجدتم عليه آباءكم من الشرك والضلال. ثم كرر هاتين الجملتين مرة ثانية، ليرفع من أفكارهم الوهم في إمكان ان يستجيب النبي (ﷺ) لطلبهم ويقع في موضعه اليأس من إمكان تلبيته لهم وختم هذه السورة الحاسمة التي فصلت فصلاً تاماً بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، بهذه الجملة الحازمة الصارمة التي تصلح أن يتمثل بها في مثل هذا المقام، وهي قوله تعالى: «لكم دينكم ولي دين. أي لكم وحدكم دينكم المضل لا أشاركم بذرة صغيرة منه، ولي في مقابل ذلك ديني الذي لا يتعلق من دينكم بأي سبب؛ فكيف يصح أن أخطو اليكم خطوة واحدة؟ ولو أن النبي (ﷺ) قبل منهم هذه الدعوة أو بعضها - وحاشاه أن يفعل - لشك برسالته، ولو شك رسول برسالته لوجب أن تنتزع منه، والرسل جميعهم منزهون عن ذلك، ولو انه قبلها منهم سياسة ومداراة، لأفلت من يده القوة قوة العزيمة التي ما كانوا يخشون من النبي (ﷺ) واصحابه مثلها، وحاشاه

عليه الصلاة والسلام أن يقبلها منهم سياسة ومداراة. على انهم لا يجوز أن تكون العقائد الثابتة موضع مساومة، وان تكون قيد السياسة التي لا تعرف لوناً ولا تجنح إلى مبدأ، فقد تكفر السياسة حين ترى حاجة إلى الكفر، وتؤمن حين ترى حاجة إلى الايمان. وعرض المشركين هذا، إن كانوا فيه صادقين، من أنصاف الحلول، وانصاف الحلول، لا تستطيع السيطرة على الخلاف في المبادىء أبداً. بل لا تقدر على الدنو منها، وأما المنازعات العادية، فقد تملك انصافُ الحلول أن تخفف من حدتها موقتاً، كالمسكن من الادوية، ونرى أن كل أمة تعالج قضاياها بأنصاف الحلول، لا يزيدها ذلك إلا استفحال الشر وعظم البلاء، والدنو من الهاوية، وليست هذه السورة خاصة بتعليم النبي (ﷺ) ولا خاصة بالرد على المشركين، وانما هي لتعليم المسلمين جميعاً في كل زمان ومكان ان يكونوا مؤمنين بعقيدتهم ايماناً لا يقدر أحد أن يساوم عليه، وأن يكونوا مؤمنين بحقهم ايماناً يحمل اعداءهم على احترامه وهيبته، ويخيفهم أن يعبثوا به أو يدنوا منه، وأن يكونوا في ذلك صريحين حازمين أقوياء، ليس في عزمهم ثغرة واحدة يستطيع احد أن ينفذ اليها. ولقد كان من أهم عوامل انتصار النبي (ﷺ) في

هذه الدعوة الكبرى ، ثباته على رسالته ، ورضاه بالاذى الكثير ، لنفسه ولمن تبعه ، عن أن يلين لهم ولو بكلمة واحدة فيها مساس بجوهر دعوته . ولقد كان له ربه بالمرصاد ، حتى عتب عليه بلهجة شديدة ، حين أعرض عن عبد الله بن أم مكتوم لما جاءه قائلا له علمني مما علمك الله ، والنبي مشغول عنه بدعوة صناديد قريش الى الاسلام ، فقال له ربه : « عبس وتولى أن جاءه الاعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فانت له تصدى ، وما عليك الا يزكى » مارضي الله لنبيه (ﷺ) أن ينفر من أعمى فقير مؤمن في سبيل دعوة زعماء قريش ، لأن الدين لاينصر بادخال زعماء القوم ، ولا ينصر الدين بالكثرة والمال وحدهما ، وانما ينصر اول ما ينصر في أن تكون رسالته عملية لاشكلية ، وأول رسالة النبي تحقق العدالة بين الناس ، لافي النواحي الاقتصادية والصحية مثلاً ، بل في كل شيء ، حتى في إقبال النبي (ﷺ) على الناس جميعاً بوجه واحد ، وقلب واحد ولسان واحد . فكل هذا درس للنبي (ﷺ) في الظاهر ، ودرس للمسلمين جميعا في الحقيقة والباطن ، صراحة في المبدأ ، وصدع في الحق ، وعزم على إنقاذهما وإنفاذهما ، وكم من باطل ظاهر البطلان

أجمع عليه قوم وتشبثوا به وفرضوه فرضاً ، كان أمضى نفاذاً وأشد انتشاراً من حق ظاهر بيد قوم هم انفسهم يشكون بقيمته ، ويترددون في حمايته ، ويتافقون عند نسبته اليهم أو نسبتهم اليه ، فما ظننا بدين كله حق وعدل آمن به اتباعه إيمانهم بوجودهم ، ثم حموه اكثر مما يحمون انفسهم واموالهم ، ومنعوه من الاذى كما يمنعون حريمهم ، ألا ينتصر وينتشر في الآفاق ! هكذا كان النبي صلوات الله وسلامه عليه وصحابته ومن تبعهم آمنوا بحقهم فنصروه ، وانتصروا أروع انتصار وأفخمه ، وشككنا بحقنا فضعفنا عن نصرته ؛ فتسلط علينا من كنا نعتقدهم أضعف الناس وأرذلهم وأدناهم .

واما بعد ، فليأخذ المسلمون من هذه السورة درس الحرص على المبدأ ؛ والدعوة اليه ، وحمايته ، وعدم النفاق فيه ، وليس هذا في الدين والعقيدة وحدهما ، وانما في كل شيء يمس مصالح المسلمين في الدين والسياسة والاقتصاد والاجتماع ؛ فاذا جاء من يكيد لنا في ديننا ويريد ان يشككنا فيه فلندعهم اليه ؛ فان أبو وأصروا ، فلننبذهم قائلين لهم : لكم دينكم ولنا دين . واذا جاء من يسخر بتراثنا ويصغر من شأن أسلافنا ويتهافت على اعداء دينه وبلاده ، فاطرحوه جانباً

وقولوا له : لك دينك ولنا دين ومن كفر بقوميتنا ، وزهد بتشريعنا ، وأعرض عن تحقيق آمالنا ، فليس منا ، وهؤلاء لهم دينهم ولنا دين . ومن بقي حريصاً على تفكك الأمة العربية ولم يسع إلى لمّ شعثها وتوحيد كلمتها . وما انفك يستغل شتاتها وتفرقها فهو عدوها ، فله دينه ولنا دين .

فيا أيها الكافرون بديننا وتاريخنا وتراثنا وبتشريعنا وقوميتنا ووحدتنا ! لا نعبد ما تعبدون فكفوا عن دعوتنا الى كفركم . وما نظنكم تعودون الى حظيرتنا فتعبدون ما نعبد ، مادامت اهواؤكم الشاذة تدفعكم الى غير ما نعبد ، فاذا رفضتم دعوتنا ، وأصررتم على ما أنتم عليه واستكبرتم ، ولم ترعوا حق الله ، ولا حق العروبة ، ولا حق الجوار ، ولا حق مصلحة الوطن . فلكم دينكم ولنا دين .

القرآن والعلم (١)

كثير من المتعلمين المسلمين - بله غير المسلمين - يظنون أن القرآن الكريم كتاب مثل كتب الديانات، ليس فيه الا التأثير بالعاطفة او بالخيال او باثارة الشعور. وهذا من الجهل الفادح بكتاب كانوا به مسلمين، بل بكتاب لم يعرف له نظير بمطاردة جيوش الاوهام والاساطير في العالم قديمه وحديثه، فالقرآن الكريم، وهو الكتاب السماوي الذي حرر الانسان من سلطة الانسان، وحرره من سلطة الوراثة والبيئة والهوى، لينظر الى الاشياء بتجرد، ويحكم عليها حسناً وقبحاً بعقله الذي أودعه الله فيه ليستعمله لا ليعطله، يقول الله تعالى في كتابه الكريم: «قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني» وقد نهى الكتاب عن ان يتّبع احدٌ احداً عن غير علم في قوله: «ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولاً» ونعى عن المشركين الجاهلين في اكثر من آية اتباعهم لآبائهم

---

[١] القيت في الاذاعة السورية

حتى في الضلال من غير بصيرة وتعقل «واذا قيل لهم اتبعوا ماانزل الله، قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون » واذا كان كثير من الملل كتابية وغير كتابية تعيش وتترعرع في ظلم الجهل والأمية والتأخر ، فان القرآن كتاب المسلمين قدس القلم الذي هو رمز التعلم تقديساً جعله يقسم به في قوله : «ن والقلم وما يسطرون »وامتن الله على خلقه بأن علمهم بالقلم في قوله : « اقرأوربك الأكرم الذي علم بالقلم ،علم الانسان ما لم يعلم » ولقد كثر ورود لفظ العلم في القرآن كثرة لم يجاره بها كتاب ديانة ولا غيرها،حتى كان هذا اللفظ من اكثر الالفاظ تداولاً في تعابير القرآن مما يدل على ان القرآن الكريم اهتم كثيراً في ان يلقف الناس الحقائق ويوعيوها صدورهم وعقولهم ؛ ويدل ايضاً على ان القرآن قد آخى العلم مؤاخاة تشعر أنهما من أصل واحد ، فالعلم الذي يعنى باكتشاف الاشياء كما هي في الواقع أخ للقرآن الذي يريد من متبعيه ان يفهموا هذا الكون البديع النظام الرائع التركيب فهماً صحيحاً ، ليعلموا أن من ورائه بارئاً ومصوراً قد أحسن كل شيء خلقه ؛ فالقرآن والعلم هما بهذا أخوان بل توءمان . ولا يتوهمن متوهم ان القرآن الكريم نزل ليشرح نظريات خاصة في علم من

العلوم ، فماهو بسبيل ذلك، وإنما وضع اصولاً عامة لكثير من المعارف تصريحاً او تلويحاً ، واذا ما ظن بعضهم ان بعض آيات الكتاب الكريم ربما جاء مخالفاً لما تلقفوه من علم فان هذه الآيات لم يكن القصد منها التحقيق في كنه سنة من سنن الكون، فليس هو - كما قدمنا - بسبيل ذلك وانما القصد تصوير ظاهرها في ذاته ،او في حركته وسكونه،هذا الظاهر الذي يمكن ان يدركه الناس جميعاً على اختلاف ملكاتهم ومواهبهم ، ويملأ نفوسهم جمالاً وروعة وعظة ، على انه كثيراً ما يكون تصوير الظاهر في جماله وعظمته أروع من انا كتناه حقيقته، فالقمر في ظاهره جميل جذاب ، كل الناس مولعون به ،ينظرون لياليه في الصيف لينعموا بأنواره الفضية التي يسكبها ناعمة هادئة على الارض ، فاذا علموا من حقيقته أنه لا نور فيه ، وأن ضياءه الذي ننعم به انما هو من الطبقة الرمادية التي تعلو سطحه وينعكس عليها نور الشمس ، وانه خراب يباب ، مملوء بالنجاد والوهاد. وانه من البرودة بحيث يستحيل ان يستمر في الحياه على سطحه حيوان ، اذا علم الناس من حقيقة القمر ذلك ، زهدوا فيه وخف احساسهم بروعته وجماله . فالقرآن الكريم اذن لم يتحدث من الكون وسننه الا عن ظاهرها ، ولو أراد البحث

عن اعمق من ذلك لخرج عن كونه كتاب هدي ونور ، نزل ليهذب الانسانية ويغسلها من أدرانها الفاسدة والمفسدة . وأما طريقته في العلم فقد تعرض له حاثاً على طلبه واثقاً بحملته رافعاً شأنهم، حاصراً خشية الله بهم ، ولقد استعمل القرآن لفظ العلم في اكثر الاغراض التي يمكن ان يشملها في العرف الحديث، من ذلك استعماله لفظ العلم في الثابت القاطع الذي لا يقبل الظن فضلاً عن الشك فقال : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وإن انتم إلا تخرصون ،قل فلله الحجة البالغة »وقال تعالى « وما لهم به من علم ان يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً » وقال تعالى « وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » وقد عبر القرآن بالعلم عن اليقين في معرض ذكر الحق في كثير من المواضع من ذلك قوله : « إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون انه الحق من ربهم »وقوله « والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ، ألا ان الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد »وقوله « ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون » وقوله « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين » وكما استعمل القرآن العلم مقابلا للظن

والشك استعمله مقابلا للهوى والسفه في قوله : «بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم » وقوله :« وان كثيرين ليضلوا بأهوائهم بغير علم» وقوله : «قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم » . وقد واءم القرآن بين العلم والعقل مواءمة تجعل العلم حيث يكون العقل ، وتجعل العقل حيث يكون العلم ،فقال : « افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »وقال :«وتلك الامثال نضربها للناس ومايعقلها إلا العالمون» واما العلوم التي شملها لفظ العلم في القرآن فلا تقتصر على العلوم الشرعية كما قد يظن علماؤها ، ولا لفظ عالم يدل على عالم الشرع فقط ، بل قد شمل كثيراً من العلوم حتى التي نسميها عصرية ، فقد سمى صنعة الدروع التي تقي الناس بأس الحرب علماً ، وأنزل على أحد أنبيائه وهو داود بتعليمه هذه الصنعة فقال : «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ». وقد سمى القرآن علماً ، مايطلق عليه في هذا العصر اسم العلم الطبيعي في قوله :«إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون» ثم مايطلق عليه اسم الفلك في قوله :«فالق الاصباح وجعل الليل سكنا

والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر » ثم ختم هذه الايات بقوله «قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون» ومن العلم الطبيعي الذي سمي القرآن حامله عالماً قوله تعالى في كتابه : « ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين » وأدهش ماورد في القرآن الكريم بهذا الصدد حصره خشية الله بعلماء الطبيعة الذين فهموا أسرار الخلق ، واستجلوا عظمة الكون فأذعنوا لخالقه خاشعين لجلاله ، وذلك في قوله : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جُدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء ، ان الله عزيز غفور) وبديهي ان المراد بالعلماء هنا الذين تعلموا ما أوردت الآية نموذجاً منه . ومما أطلق عليه القرآن اسم العلم أيضاً الاطلاع على الكتاب والحكمة وذلك في قوله (كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) ، وهذا الذي أوردناه قليل من كثير . على انه إن كان للعلم أول فما له من آخر ،

وقد بين القرآن ذلك بأوجز لفظ وأروعه حين قال : (وفوق كل ذي علم عليم) واما ترغيب القرآن في العلم وحثه عليه فحسبنا فيه هذا التنديس للعلماء ، وجعلهم أولى الناس برضاء الله ،وأحقهم بخشيته حين قال (انما يخشى الله من عباده العلماء) وقد اعترف بان المقارنة بين العالم وغير العالم لا تصح، للفرق الهائل بين العلماء وغيرهم ،وذلك حيث يقول (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) .

أبو بكر الصديق (١)

إن في تاريخ الاسلام كل عظيم، وإن في تاريخ الاسلام كل معجز، هذا أمر لم يعد يحتمل الشك، ولكن هل أفاد المسلمون في عصور الادبار من هذا التاريخ قوة؟ هل أفادوا منه سداداً ورأياً، هل سخروه لتفريج النكبات، واستوحوه حين تأزم الازمات؟ الواقع انه لم يكن شيء من ذلك، بل الواقع المؤلم ان المسلمين اتخذو من هذا التاريخ الحافل مرقداً وثيراً، سكنوا اليه واطمأنوا فيه، واستمروا نائمين في ليل طويل، تحوم فوقهم احلام من البطولات؛ بل أحلام من التدين والعلم والخلق وحسبهم من سمو الحياة لذه هذه الاحلام، وحسبهم من العمل لذة الذكرى. وليكونوا بعد ذلك بأية حال

إن تاريخنا قوة واي قوة، فلندخره للحاضر، ولنعبئه للمستقبل، فالاتجاه يجب ان يكون الى الامام دائماً، والتفكير الجدى يجب ان يكون في المستقبل، ثم لنجمع لذلك كل ما لنا من مقومات: قيم

---

(١) القيت في ناد سمي باسم ابي بكر الصديق

اخلاقية ، وتدين صحيح ، وبطولة رائعة . لتكون هذه القوة أداة دفع لاداة جذب ، وعامل تقدم ، لا عامل استنامة وتأخر

لا نريد ان نكون اليوم كالاطفال يستطيعون بآبائهم ويستريحون ، بل نريد ان نسترشد بهم ، ونستنير بهديهم ، لنكون مثلهم آباء يشتد بنا الابناء .

انه لجميل وممتع ان نحتفل بعظمائنا ونتزين بأسمائهم ، ولكن ألا يكون أجمل وأمتع وأنفع أن نحاول ايضاً تمثل اخلاقهم وسيرهم ، أو أن نبحث عن أسباب قدرتهم التي جعلت منهم عظماء كانوا مركز اشعاع رفعوا به امتهم الى السماء .

عفواً انا ما جئت لاقول شيئاً من هذا كله ، وإنما جئت ليكون لي شرف القول في ابي بكر الصديق ، الذي شرفتم ناديكم بتسميته باسمه .

ومن أسباب التوفيق ، أن هديتم لهذا الاسم الذي يذكرنا بعهد هو انضر عهود الدنيا وامرعها واحسنها نتاجاً .

فالصديق رضي الله عنه ليس هو من الذين يؤرخون لتذكر حسناتهم وسيئاتهم ، وتذكر منافعهم ومضارهم ، ثم يبقى رهن الماضي . وانما الصديق نموذج بشري خالد . كان ممكناً ان يخطيء فلم يخطيء ، فقد

جمع من اسباب الخير والسمو ما به نعتقد ان في البشر استعداداً كبيراً للخير اذا يسر لهم ما يسر له .

أجل ، لقد احتلت الرسالة الاسلامية قلب الصديق وعقله ، وملكت روحه ونفسه ، ومحصته من الشوائب ، حتى غدا ملكاً يمشي على رجلين ، ولو اتيح للرسالة أن تتقمص أحداً لما اختارت غير الصديق ثوباً لها ، فقد بدا فيه شكلها العملي كاملاً قوياً رائعاً ، حتى اضحى يعمل الخير لانه لا يملك الا الخير ، ويتجنب السوء لانه فقد قابلية السوء ، ويهرع الى المعروف بنزع كالطبيعة فيه ، وما هو بها ، لا يتكلف في ان يظهر عمله ، ولا يتكلف في أن يخفيه ، يسبق الى كل فضيلة من غير ان يدري انه يسبق ،

كان رسول الله (ﷺ) يتعهد اصحابه ، ويسألهم عما يجوه من الخير سحابة يومهم ، في ذات غداة صلى رسول الله (ﷺ) الصبح ، فلما قضى صلاته قال : أيكم أصبح اليوم صائماً قال عمر أما أنا يارسول الله فقد بت لاأحدث نفسي بالصوم وأصبحت مفطراً ، فقال أبو بكر : أنا يارسول الله بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم فأصبحت صائماً .

قال أيكم عاد اليوم مريضاً قال عمر ، يارسول الله انما صلينا الساعة

ولم نبرح فكيف نعود المريض ؟ فقال أبو بكر : أنا يارسول الله ، أخبروني ان أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع ،فجعلت طريقي عليه ، فسألت عنه ثم أتيت المسجد .

قال رسول الله (ﷺ) فايكم تصدق اليوم بصدقة؟قال عمر: يارسول الله ما برحنا معك منذ صلينا ، فكيف نتصدق ؟ قال ابو بكر : أنا يارسول الله ، دخلت المسجد فاذا سائل يسأل ، وابن لعبد الرحمن بن ابي بكر ، معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتها السائل ، فقال رسول الله لابي بكر : فأبشر بالجنة ، فلما سمع ذلك عمر تنفس فقال هاه فنظر اليه رسول الله (ﷺ) فقال كلمة رضى بها عمر .

وما انتفعت الدعوة الاسلامية بشيء بعد رسول الله (ﷺ) أجدى عليها وأحسن عائدة من أبي بكر الصديق في صدقه وصبره وقوة إيمانه ونفاذ بصيرته ، ومن ثم كان أفضل الناس، مايرتاب في ذلك أحد من الصحابة والتابعين الا الاقلون .

وفي الحديث : لو وزن إيمان هذه الامة بايمان أبي بكر لرجح به.

وفي الحديث أيضاً: مافضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام،ولكن

فضلكم بشيء وقر في صدره . ووقف مرة علي بن أبي طالب على منبر الكوفة فقال : ألا ان أفضل الناس بعد نبيها ابو بكر ثم عمر . ولقد كان يتعاظم كبار الصحابة ان يُتهموا بانهم يتساوون به أو بأنهم يفضلون عليه .

وقدم ناس من أهل الكوفة ، وناس من أهل البصرة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نزلوا المدينة ، تحدث القوم بينهم إلى أن ذكروا أبا بكر وعمر ، ففضل بعض القوم أبا بكر على عمر ، وفضل بعض القوم عمر على ابي بكر ، وكان الجارود بن المعلى ممن فضل ابا بكر على عمر ، فجاء عمرُ ومعه دِرَّته ، فاقبل على الذين فضلوه على ابي بكر فجعل يضربهم بالدِّره ، حتى مايتقي احدهم الا برجله . فقال له الجارود : أفق أفق يا أمير المؤمنين ! فان الله عز وجل لم يكن ليرانا نفضلك على ابي بكر ، ابو بكر أفضل منك في كذا ، وابو بكر أفضل منك في كذا ، فسرى عن عمر ثم انصرف ، فلما كان العشى صعد المنبر فقال : ألا أن أفضل هذه الامة بعد نبيها ابو بكر ، فمن قال غير هذا بعد مقامي هذا فهو مفتر ، عليه ماعلى المفترى .

و كثيراً ما كان رسول الله (ﷺ) يذكر ابا بكر مغتبطاً شاكراً معترفاً بالجميل، في عاطفة ندية واخوة الصادقة فيقول: إن من أمَنِّ الناس علي في صحبته وماله ابا بكر؛ ولو كنت متخذاً خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الاسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا بابُ ابي بكر. ويقول رسول الله (ﷺ) أيضاً: مانفعني مال قط مانفعني مال ابي بكر فبكي ابو بكر وقال: ماأنا ومالي إلا لك. وقال: ماأحد أعظم عندي يداً من أبي بكر؛ واساني بنفسه وماله وانكحني ابنته.

واما بعد، فلا نستطيع أن ندعي انا قلنا شيئاً في أبي بكر، إلا أنها خطوط ترمز إلى بعض صفاته ومناقبه التي هي كما قال النووي: لا يمكن استقصاؤها ولا الاحاطة بعشر معشارها، على انه لايجوز أن نمر مسرعين دون أن تستوحي من سيرة ابي بكر مايجب أن يكون مبدأ لنادٍ تسمى باسمه، لنفسح المجال لابي بكر ان يتجاوز الباب إلى الداخل، وان يتجاوز الاسم الى الحقيقة، حتى يعيش فينا بروحه، فيبعث فينا من صفاته مانحن في أشد الحاجة اليه. فلنذكره دائماً، ولنذكر انه ما صنع منه ابا بكر الخليفة الاول وسيد الدنيا بعد الانبياء غير الايمان، ولنذكر انه عاش لامته، وقسم

جسمه في جسومها ، فانتعشت به وشعرت بالحياة ، كما كان يحب لها ولنذكر أنه أصلب الناس فيما أمر الله ، وفيما أمر رسول الله ، لا يثنيه عذل العاذلين ، ولا خوض الخائضين ، وهو في غير ذلك أرفق الناس بالناس ، وأحدبهم عليهم ، وأطيبهم تعطفا ومواساة . اذكروا ابا بكر الصديق لكل ذلك واعملوا على تحقيقه فانكم لابد منتصرون .

عمر بن الخطاب مع عماله (١)

اذا اختبر المرء مدارس الدنيا وجامعاتها ومجالس حكمائها وكهوف عبادها، ونوادي ساستها، من قديم الزمن حتى يوم الناس هذا، وأراد ان يعلم أيها خير نتاجاً وافضل عملاً، وأيها كان أجزل على الانسانية نفعاً وأطيب ثمراً، فما يشك في أن هذه المدارس والجامعات والمجالس والكهوف والنواوي، لو اجتمعت وتعاونت على أن تعمل عملاً واحداً، وتنتج انتاجاً واحداً، لما كان عملها وانتاجها مماثلاً ولا مقارباً لانتاج مدرسة محمد رسول الله (ﷺ) وما نقول هذا مجازفين لانا مسلمون، بل نقوله متجردين؛ ومن شاء فليبحث، ومن شاء فليقارن، فلن يرى بعد البحث والمقارنة، غير ما نعلن وغير مانؤمن به ونعتقد، وما كانت مدرسة محمد صلوات الله عليه كغيرها لاتعنى الا بناحية خاصة من نواحي التربية النظرية، بل سلكت السبيل العملي إلى تربية الرجولة الكاملة في الرجال.

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

الرجولة الكاملة من جوانبها كلها ، من عقل وروح وعمل ، مع تفتيح المواهب ، وإثارة العزائم وتقوية شجاعة الحق ، والغض من شرة الباطل حتى كانت النتيجة العملية لهذه التربية رائعة معجزة ، فان نيفاً وعشرين سنة حياة هذه المدرسة ، كانت أبرك على البشرية من قرون طويلة ، بل كانت أبرك على البشرية من عمرها كله ، ولقد كان ممن تخرج من هذه المدرسة عمر بن الخطاب ، أعدل حاكم لشعب ، بعد عميد مدرسته رسول الله ، وزميله ابي بكر الصديق . واذا ذكر عمر بن الخطاب ذكر معه اسمى صورة للحكم المثالي العادل . واذا كان الفلاسفة والسياسيون المثاليون قد تفننوا في تخيل الحاكم النزيه الحازم العادل واعترفوا بعدم امكان وجوده بالصورة التي تخيلوها ، فانما عمر بن الخطاب هو ذاك المتخيَّل الذي أمكن وجوده بصورة أكمل وأتم مما تخيلوه ، فما ظننا بحاكم سبق في عدله وروعة حكمه خيال أقدر المتخيلين ، ومثال أبرع المثاليين ، أي عجب واية معجزة هذه المدرسة التي تخرج منها عمر ؟ عمر الذي كان يقول : كنت أرعى الغنم بكف من زبيب ، والآن صرت أمير المؤمنين ، مدللاً على تأثير مدرسة محمد رسول الله على توجيهه ، ونقله مما كان فيه الى ان اصبح أمير المؤمنين ، عمر الذي كان

في جاهليته جافياً ، محباً لذاته ، شديد البغي ، ضيق العطن ، حرج الصدر ، قد أصبح في الاسلام - وخصوصاً في الحكم - يهتم بغيره ، ويعنى برعيته ، حتى إنه ليشعر بالمسؤولية شعوراً جعله يقول : لو أن عنزة على شاطيء الفرات ماتت جوعاً لسئل عنها عمر . فاذا كان في عمر شيء من بذور العبقرية ، فما في الارض من تربة أصلح لاستنباتها وتعهدها بالنماء والقوة من تربة محمد رسول الله ، وبيئة محمد رسول الله ، ومدرسة محمد رسول الله . وما نحن الآن بسبيل أن نسرد جوانب عظمة عمر في الحكم فما يتاح لنا ذلك في هذا الوقت القصير ، ولكن نذكر من ذلك طرفاً من سياسة عمر إزاء عماله ، أو بتعبير نا اليوم إزاء موظفيه ، فقد علم بفطنته ودقيق ملاحظته ، أن كل موظف في الدولة له نصيب من سلطتها يمكنه به ان يستغله لنفسه ، ما لم يراقب مراقبة فعالة من غير محاباة ولا التماس ، واذا لم يكن للمسئول الأول اشراف فعلي دقيق على عماله أو موظفيه ، أذلوا رقاب الناس ، واستنفدوا خيرهم ، واصبحوا لهم انصاف آلهة ، بينما ينبغي ان يكونوا اجراء لهم ، يسعون الى مصالحهم ويقومون بشئونهم ، وما دنا من عمر بن الخطاب في هذا الباب حاكم ، فقد كان - رغم انه جمع لشخصه مهمة عشرة وزراء

وعشرة محافظين واضعافهم من امناء الدولة واضعاف أضعافهم من كبار الموظفين في دولة حديثة ـ فقد كان شديد التيقظ ، حديد النظرة لكل موظف يريد ان يستغل مكانته لنفعه المادي ، وما كان عند عمر شيء مثل المال يمتحن به عماله ، ولا فرق عنده في ذلك بين خاصته وقرابته وبني عشيرته ، وبين أبعد الناس عنه ، ولا بين من اشتهروا بالعفة والزهد من كبار الصحابة ، وبين من تغريهم المادة ، ويطغيهم المال ، فكلهم يمكن ان يزل ، وكلهم لحب الخير لشديد ، فلماذا اذن لا يراقبهم ولا يراقب تصرفاتهم ؟ وماذا عليه ان يلقى الشر من نصف الطريق فيصرعه ؟ وماذا عليه أن يحتاط للامر قبل وقوعه ؟ هكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ولم يكن يكتفي بمراقبته في حدود العمل ولا في حدود الوقت المعين للعمل ، بل كان رضي الله عنه يتفحص عامله في جميع احواله .

فانه إن كان في حدود عمله مثال الجد والنشاط والعفة ، فلعله أن يكون خارج عمله مستهتراً بالبذل ولوعاً بالرفة ، فمن أين يأتي بما يسد له مطالبه الكثيرة ؟ وما كانت الاستقامة عند عمر كما نفهمها اليوم تجزأ ، بحيث يصح أن نعتبره مستقيماً ، مادام في حدود عمله مستقيماً ، فاذا

خرج من عمله فله من حريته الشخصية ما يبيح له ان يفعل ما يشاء ، ولو كان ممن يستترون فسقهم وضلالهم في عملهم بمظاهر النزاهة والعفة والغيرة على المصلحة ، كان عمر اوسع فهماً واشمل نظرة منا في هذا العصر ، فالامانة والاستقامة والدين عنده لا تتجزأ ، وكلها لا تكاد تفترق ، فالامين هو المستقيم ، والمستقيم هو الدّين ، والدين هو الامين المستقيم ، وهو الذي يكون في بيته وفي خاصته في عمله وفي ظاهره وفي باطنه شيء واحد . كانت عائشة رضي الله عنها اذا ذكر عمر قالت كان والله أحوزيا نسيج وحده قد أعد الامور أقرانها . ولنسق الآن بعض قصص عمر مع من ظنهم من عماله أنهم قد استفادوا من عملهم اكثر مما رتب لهم ، مر عمر رضي الله عنه ببنيان يبني بآجر وجَص فقال : لمن هذا ؟ قيل : لعاملك على البحرين ، فقال : ابت الدراهم الا أن تخرج أعناقها ، فارسل اليه فشاطرة ماله . وكان سعد بن أبي وقاص يقال له المستجاب ، لقول النبي (ﷺ) : اتقوا دعوة سعد . فلما شاطره عمر ماله ، قال له سعد ، لقد هممت ، قال له عمر : بان تدعو علي ؟ قال نعم ، قال : اذن لا تجدني بدعاء ربي شقيا .

ولما عزل عمر عامله عن البصرة وشاطره ماله ، وعزل عامله على

البحرين وشاطره ماله ، دعا بعامله على البصرة فقال له . ما جاريتان بلغني انهما عندك ، أحدهما عقيلة والأخرى من بنات الملوك ؟ قال : أما عقيلة فانها جارية بيني وبين الناس ، واما التي هي من بنات الملوك فاني أردت بها غلاء الفداء قال : فما جفنتان تعملان عندك ؟ قال رزقتني شاة في كل يوم ، فيعمل نصفها غدوة ونصفها عشية ، قال فما مكيالان بلغني انهما عندك ؟ قال أما أحدهما فأوفى به أهلي ودَيني ، وأما الآخر فيتعامل الناس به . فقال : ادفع الينا عقيلة ، والله انك المؤمن لا تغُل (أي لا تسرق من الغنائم) أو فاجر مُبل (أي قوي الحجة) ارجع الى عملك ، والله ان بلغني عنك أمر لم أُعدك .

ثم دعا عامله على البحرين فقال له : هل علمت من حين أني استعملتك على البحرين ، وانت بلا نعلين ؟ ثم بلغني انك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار ؟ قال كانت لنا أفراس تناتجت وعطايا تلاحقت قال : قد حسبت لك رزقك ومؤونتك وهذا فضل فأده ، قال : ليس لك ذلك ، قال بلى والله ، وأوجع ظهرك ، ثم قام اليه بالدِرّه فضربه حتى أدماه ثم قال : ائت بها قال : احتسبتها عند الله ، قال : ذلك لو أخذتها

من حلال وأديتها طائعاً . أجئت من أقصى حجر بالبحرين يجبي الناس لك، لا لله ولا للمسلمين .

ثم دعا الحارث بن كعب فقال : ماقلاص وأعبُدٌ بعتها بمائتي دينار؟ قال . خرجت بنفقة معي فتَجِرت فيها ، فقال . أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين ، أدها ، فقال . أما والله لاعملت عملاً بعدها ابداً ، قال انتظر حتى استعملك .

ولما ولى عمر بن الخطاب (رض) عتبة بن ابي سفيان الطائف وصدقاتها ثم عزله ، تلقاه في بعض الطريق فوجد معه ثلاثين الفا ، فقال : أنى لك هذا ؟ قال : والله ماهو لك ولا للمسلمين ، ولكنه مال خرجت به لضيعة اشتريها ، فقال عمر . عاملنا وجدنا معه مالا ، ماسبيله الا بيت المال .

بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب (رض) وهو على الشام بمال وأدم مع أبيه ابى سفيان ومعه كتاب ، فذهب ابو سفيان بالأدم والكتاب الى عمر واحتبس المال لنفسه ، فلما قرأ عمر الكتاب قال له فاين المال يا أبا سفيان ؟ قال كان علينا دين ومعونة ، ولنا في بيت المال حق ، فاذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به ، فقال عمر . اطرحوه في

الأدهم (وهو القيد) حتى يأتي بالمال، قال فارسل أبو سفيان من أتاه بالمال فأمر عمر باطلاقه من الادهم ، قال فلما قدم الرسول على معاوية ، قال له : رأيت أمير المؤمنين اعجب بالادهم ؟ قال نعم ، وطرح فيه أباك . قال ولم ؟ قال جاءه بالادهم وحبس المال . قال : اي والله ، والخطاب لو كان لطرحه فيه .

هذا قليل من كثير ، فخلافه عمر ابن الخطاب كلها كذلك، وكلها انتصار للحق والورع والعفة ، على الباطل والتساهل والشره ، ولم تكن سياسة عمر ذات ألوان انما هي لون واحد . وسياسة الالوان سياسة الضعف ، وسياسة اللون الواحد سياسة القوة : لا قوة الحديد والنار ، بل قوة الحق وقوة الايمان وقوة الشخصية ، وما بث هذه القوى فيه إلا دينه ، ومن العبث ان نبحث عن قوة تضارع قوة عمر، في أي عصر يكون مصدرها غير الايمان بالله ، ومدرستها غير مدرسة محمد رسول الله .

العدالة الاجتماعية (١)

أما بعد، فقد كثر حديث الناس في هذا العصر، عن العدالة الاجتماعية، التي يريدون بها حل المشكلة الازلية، مشكلة الغنى والفقر، مشكلة التفاوت الهائل بين الطبقات، عامل كادح، وفقير يموت ولا يجد عملا، وفلاح مستضعف، كل اولئك يبذل ماء حياته وعصارة وجوده لينال من الطعام والكساء ما يحفظ وجوده، فلا يكاد يبلغ ذلك إلا بشق الأنفس، في وقت يغرق صاحب العمل او مالك الارض بالرفه والنعيم، من غير أن يلقيا بالاً لشقاء الاشقياء وفناء الفقراء، وهذا ـ لا شك ـ من قسوه الانسان وطبيعة الظلم فيه.

ومرتين في التاريخ ارتفع صوت في العدالة الاجتماعية، مرة في رسالة محمد رسول الله (ﷺ)، ومرة في هذا العصر. أما الحل العملي في هذا العصر، فهو حل آلي مادي لا ينظر الى المشكلة من ناحيتها الانسانية والروحية، وأما الحلول العملية التي أتى بها الاسلام، فقد نظرت

---

(١) القيت في مسجد عيسى باشا خطبة جمعة وأذيعت

الى هذه المشكلة الكبرى من جميع أطرافها . لم تنظر اليها نظرة مادية خالصة ، ولا نظره روحية محضة ، ولم تلحظ الفردية وحدها بأن يعمل الفرد ما يشاء ، ولا ناحية المجموع بان يذوب فيها الفرد ذوبانا مطلقا ، بل كانت ملاحظة لذلك كله . ولكي نقدر مدى صلاحها وإصلاحها ، فلنشر إشارة سريعة الى الوضع المالى في العرب قبل الاسلام . لقد كانوا في فوضى مالية فاسدة ، ونظام اجتماعي أفسد ، الغني يتحكم بذي الحاجة تحكماً شاذاً ؛ يُقرضه على الربا اضعافاً مضاعفة ، ويستبد بجميع ما تملك يده ، يحتال المدني على القروي ، والقروي على البدوي ، في سلب سلعه بابخس ثمن . البراعة في كسب المال ، استئثار وعنف وظلم ونهب الى غير ذلك ، مما يظن انه من المستحيل إصلاحه ، فلما جاء الأسلام قضى بأسرع ما يتصوره عقل ، على هذه الفوضى ، وسار بهم في نهج واضح وصراط مستقيم ؛ بدأ فحسم أمراض التعدي في الحقوق ، فحرم الربا والغصب والاحتيال ، كما حرم جميع وسائل جلب المال بغير الطرق الواضحة المشروعة ، ثم وضع الاصول العامة الثابتة ، فأقر حق الملكية الفردية ما دامت في الحدود التي شرعها الله ، فان لم تكن كذلك فليست ملكاً ، وليست محترمة احترام الملك ، ولو ادعى مدع ملكيتها من أجيال ، ولقد أقر حتى التملك استجابة لفطرة

الانسان الاصلية ، ولكنه إن أباح له ذلك ، فقد فرض في ماله حقاً آخر ، ليس أقل شأناً في نظر الاسلام من حق الملكية الاصلية ، هذا الحق هو حق الفقراء والمساكين « وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وذلك أن المال في نظر الاسلام مال الله، آتاه عبده وكالة ، ليحسن التصرف فيه ، يقول تعالى في صدد المكاتبين « وآتوهم من مال الله الذي اتاكم » ويقول « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » . فاذا كان المال مال الله وجب على من آتاه اياه ان يراعي فيه ما اوجبه عليه ، فان لم يفعل وجب على أولي الامر ان ينفذوا بالقوة أمر الله ، كما فعل الصديق بحربه أهل الردة حين منعوا الزكاة وقال: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . فالزكاة اذن ليست تفضلا من الغني على الفقير ، ولكنها حق كامل ، فمن أداه فقد نفذ وصية الله فيما وكله عليه، ومن لم يؤدِّه فقد خان أمانة الله اما النسبة التي أوجبها الاسلام في اكثر الاموال وهي ربع العشر فهي أقل نسبة واجبة. وللامام اذا اضطر بسبب انتشار فقر، او استعداد لحرب او لعمران ضروري، ان يفرض زيادة على قدر المصلحة، وكلاهما واجب محتم على كل مسلم ملك النصاب. اما التطوع بالانفاق فلا حد له ، بل كان بعض الصحابة يرى في إدخار

المال إثماً مستدلا بظاهر قوله تعالى: « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » وآخذاً ايضاً بقول النبي (ﷺ) وفعله ، فقد روى أبو ذر رضي الله عنه قال : خرج رسول الله (ﷺ) يوماً نحو احد ، وأنا معه ، فقال يا أبا ذر فقلت . لبيك يا رسول الله فقال : الاكثرون هم الاقلون يوم القيامة ، إلا من قال كذا و كذا ، عن يمينه وشماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم . وها هو (ﷺ) يدركه الأجل وتأخذه الشدة قبل الموت ، فيذكر أن هناك ستة دنانير أو سبعة في حوزته ، فيأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ثم تأخذه الغيبوبة ويشغل أهله به عن إنفاذ امره فاذا صحا من غيبوبته كان أول ما يقول قوله (ما فعلت تلك الذهب ؟ فاذا علم أنها لم توزع ، أخذه الغضب فطلب من عائشة إحضارها ووضعها في كفه ، وهو يقول : « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه ؟ » ثم تصدق بها جميعا فهذا الكمال في حقه (ﷺ) ، أما التشريع فعلى المال ربع العشر ، ما لم يكن هناك ضرورة الى أكثر ، ولو أخذنا بنظرية أبي ذر بصورة تشريعية لعطلنا فريضة الزكاة . فاذا

كانت الزكاة ركنا من أركان الاسلام . فان الضمان الاجتماعي ركن أيضا ، وما الزكاة إلا أكبر جزء في العدالة الاجتماعية ، وكون الزكاة ركنا ، يظهر اهتمام الاسلام بمعالجة المشكلة الكبرى ، مشكلة الغنى والفقر ، معالجة عملية ناجحة ويُظهر اعتبارها من أصوله الاصلاحية الكبرى .

لاحظ الاسلام العدل الاجتماعي في نظام الزكاة والحث على الصدقات ، فماذا فعل في توزيع الاراضي ؟ ان حق الملك في الاسلام حق مصون ، لايجوز التعدي على حرمته ، اذا ثبت ملك المالك له بصورة مشروعة لالبس فيه ولا مكر ولا خداع ، واذا ثبت للمالك حسن التصرف والانتفاع ، لان الملكية العينية لاتكون متحققة بدون حق التصرف والانتفاع ، هذا شأن الاراضي المملكة ، أما الاراضي التي تأخذها دولة اسلامية عنوة ، أي بحرب وقتال ـ ونظيرها ما يسمى اليوم باملاك الدوله ـ فهذه الاسلام فيها نظرة اشتراكية فانه وزعها على فقراء المسلمين ينتفع بها اكبر عدد ممكن منهم ، يفعل ذلك خشية أن تكون دولة بين الاغنياء ، أي خشية ما يسمونه اليوم الاقطاعية ، تستأثر بها طائفة خاصة من الاغنياء ليزيدوا غناهم غنى ثم

يورثونها إلى مثلهم ، ولا ينتفعون منها إلاّ بمقادير ضئيلة و يبقى معظمها معطلا بورا ، بينما يكون من حولها من الفلاحين والفقراء من هو بحاجة إلى قوت يومه وهذا صريح في قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كي لايكون دولة بين الاغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب ، للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ».

وسبب هذه الآية ان بعض المسلمين أراد أن يقطعهم النبي (ﷺ) أرض بني النضير ، فرفض ووزعها على فقراء المهاجرين ، لذلك قال تعالى : للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم . أي أن أرض بني النضير هي لهؤلاء الفقراء المهاجرين . وهذا التصرف يقرر مبدأ في الاسلام صريحا هو كراهة أن تكون الارض دولة بين الاغنياء وحدهم دون أن يكون للفقراء منها أي نفع ، أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد كان تصرفه في أرض سواد العراق وارض الشام مبنيا على هذا الاساس ، وهو الخشية من أن يتداولها الاقطاعيون

إلاّ إنه لم يقسمها كما فعل النبي (ﷺ)، بل وقفها على المسلمين زيادة في الاحتياط، لئلا تقع في أيدي المستأثرين، وهو رأي معاذ بن جبل. فان عمر لما قدم الجابية أراد قسمة الارض بين المسلمين، فقال له معاذ: (والله اذن ليكونن ما تكره انك ان قسمتها اليوم صار الربع العظيم في أيدي القوم، ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة، ثم يأتي بعدهم قوم آخرون يسدون في الاسلام مسدا، وهم لا يجدون شيئا فانظر امرا يسع اولهم وآخرهم. فصار عمر إلى قول معاذ. ففعل النبي عليه السلام في قسمة خيبر بين فقراء المهاجرين، واجتهاد عمر في وقف السواد والجابية، كل ذلك خشية ان تكون الارض دولة بين الاغنياء وحدهم، كما قال تعالى: لئلا يكون دولة بين الاغنياء منكم، وخلاصة القول: ان الاسلام عمل للعدالة الاجتماعية ما لم يعمله أحد فهو مع احترامه للملكية الفردية احتفاظا للجماعة احتياطا دقيقا، واحتاط ألا يكون شقي ولا محروم.

صور من العدل في الاسلام (١)

المفروض ان الانسانية كلما اوغلت في المدينة ، كان ذلك أدعى الى تحقيق العدل واشاعته بين الافراد والجماعات والامم ، وأدعي الى التدقيق في تطبيقه . فلقد كان من المألوف في الجماعات البدائية ان يسطو فرد على فرد ، وشعب على شعب ، لاغاية لهما إلا الظلم ، والاستئثار بالخير والسعة . ولما بدأ الناس يشعرون بخطورة هذه الحال ، تمخض شعورهم مع الايام عن وضع قوانين يحفظون بها حقوقهم ، ويضربون عن طريقها على يد الظالمين ، ولكن القوانين والتشاريع ، ان حفظت حقوق الناس في الظاهر فما استطاعت ان تقتلع من النفس البشرية جذور الشر والظلم . وقديماً قال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس ، فان تجد ذا عفة ، فلعلة لا يظلم

لذلك جاءت وصايا الحكماء القدماء والديانات السماوية القديمة ، بان

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

يحرص المرء على العدل من نفسه ، لا أن يُحمل عليه حملاً ، خوفاً من رقابة القانون أو خشية من بأس الحاكمين . والشريعة الاسلامية لم تكتف باشتراعاتها الواسعة الدقيقة التي احتاطت لكل شيء حتى الاحتمال ، بل زادت على ذلك بان عمدت الى ترويض النفس الانسانية وتهذيبها ليحل العدل من سجيتها محل الظلم . وما نظن ان شريعة من الشرائع أو قانوناً من القوانين دقق في العدل الى الحد الذي جاء به الاسلام . وحادثتان في القرآن تكفيان دليلا على ذلك . كان هناك رجل من الانصار يقال له طُعمه بن أُبيرق من بني ظفر بن الحارث ، سرق درعاً من جاره يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق في الجراب حتى انتهى الى داره ، ثم خبأها عند رجل من اليهود ، يقال له زيد بن الحسين ، فالتُمست الدرع عند طعمه ، فحلف بالله ما أخذها وما له بها من علم ، فقال أصحاب الدرع لقد رأينا أثر الدقيق حتى دخل داره ، فلما حلف تركوه واتبعوا أثر الدقيق الى منزل اليهودي ، فاخذوه منه ، فقال اليهودي : دفعها إليّ طعمة بن ابيرق وهو السارق ، وشهد له جماعة من اليهود . وجاء بنو ظفر وهم قوم السارق الى النبي (ﷺ) ، وسألوه ان يجادل عن صاحبهم

طعمه ، اي يدافع عنه ويحامي، ضد اليهودي ، ولقد هم رسول الله(ﷺ) ـ حين لبسوا عليه ـ ان يعاقب اليهودي بقطع يده ، لولا ان الوحي جاء من عند الله بقوله : « إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » . نزلت هذه الآية بهذه اللهجة الحازمة لتبلغ النبي (ﷺ) الى ان الكتاب الكريم نزل ليحمي الناس بعضهم من بعض ، وليحكم به النبي بما أراه ربه ، لا ينصر مسلماً على يهودي إذا كان الحق بجانب اليهودي لذلك جعل الله ميل النبي (ﷺ) الى الانتصار للمسلم ومعاقبة اليهودي مما يحتاج الى الاستغفار ، فقال في تمام الآية : « واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيما » ولم ينته تنبيه الله تعالى لنبيه بهذه الآية ، بل عقبها بآيات يبين فيها خطر مجادلة النبي(ﷺ) عن طعمه وقومه لانهم يختانون انفسهم فقال : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما » ثم تحدث القرآن عن خشية طعمة وقومه من فشو أمرهم بين الناس . يقول تعالى : « يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضي من القول وكان الله بما يعملون محيطا » ثم يلتفت القرآن الكريم الى بعض المؤمنين الذين جادلوا عن طعمه وقومه مؤنباً بقوله «ها أنتم

هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة . أم من يكون عليهم وكيلا » ثم اتجه القرآن الى طعمة حاثاً له على التوبة والانابة والاستغفار ، مطمعاً له بالغفران بقوله تعالى : «ومن يعمل سوأ او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيما » ثم نبه طعمة الى أن من يكسب اثماً فانما يصيب به نفسه وحدها بقوله تعالى: «ومن يكسب اثماً فانما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما » ثم يحمل حملة عنيفة على كل من يجترح سيئة ثم يلصقها ببريء ولو كان يهودياً بقوله تعالى: « ومن يكسب خطيئة أو اثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً واثماً مبينا»

ولم يكتف الكتاب الكريم بهذا كله بل التفت الى النبي صلوات الله وسلامه عليه ، يُدل بفضل الله عليه ان عصمه من الضلال ، ومن الانزلاق الى نصرة الباطل ، وضياع الحق في هذه الحادثة ، إذ قال بعدها « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم ، وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك - أي من هذه الحادثة - ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما » . إذ نجاك ان تكون من الظالمين . ثم ختم هذه الآيات البينات مُعرّضاً بطعمة إذ أظهر عداءه للرسول الكريم

وارتد عن الاسلام، ثم أنذر بجهنم كل الظالمين، و كل من يشاقق الرسول، و كل من يتبع غير سبيل المؤمنين بقوله تعالى: « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدي ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ». هذه حادثة مثالية نادره، كان اليهودي من فئة غادرة ماكرة، أصاب النبي وصحابته منها كل اعتداء وكيد، فكان من المتوقع والمألوف، بل من المستحسن في العرف أن تغتنم مثل هذه الحادثة للنيل من عدو كائد، ولكن القرآن كان في هذه الحادثة مبدأ ساميا مجرداً عن كل داعية ذاتية، ومجرداً عن كل انتقام، رضي بكل قوة أن ينتصف للذمي. ويعلن براءته، وان يلاحق المسلم الذي ثبتت إدانته، غير مبال في سبيل احقاق الحق والانتصار للعدل، بأن يرتد المسلم، وبأن لايسلم اليهودي، فسموُ المبدأ فوق الاشخاص، وهذا سر من أسرار خلود هدْي محمد (ﷺ). واما الحادثة الثانية فهي أدق حادثة في تصوير العدل، ذلك أن الناس اعتادوا - اذا اختصم غنى وفقير في أمر - أن يعطوا الحق بداهة للفقير، احساساً منهم بضعفه وحاجته وعجزه عن ظلم الغني، فيحكمون بعاطفة الشفقة والرحمة،

ويكيلون للغنى الشتائم من غير تحقيق ولا تمحيص ، يتبعون في ذلك أهواءهم . مع ان العدل لايعرف الانتصار للفقير لانه فقير ، ولا للغني لانه غنى ،بل يعرف العدل للعدل . وقد جرى للنبي (ﷺ) قريب من ذلك ؛ فقد روى السدي ان فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي (ﷺ) فكان صغوه (أي ميله) مع الفقير ، يرى أن الفقير لايظلم الغني ، فأنزل الله في كتابه « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم او الوالدين والاقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا ،وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً » ففي هذه الآية قوله تعالى : إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، إشارة إلى هذه الحادثة ، فالله تعالى ينبهنا إلى أن ننظار إلى العدل المطلق ، لا أن ننظر إلى فقير من حيث فقره وإلى غني من حيث غناه، فالله أولى بالغني والفقير منا فلنوكل امرهما اليه . ولننصرف إلى العدل المجرد عن أي هوى أو أية رغبة . وفي هذه الآية غير هذا صورٌ من العدل رائعة حقاً ، فاولها قوله تعالى : كونوا قوامين بالقسط ، فقوامين لفظ مبالغة، أي قائمين بشدة وقوة، بالقسط أي بالعدل ، وكل عدل في الحقيقة يحتاج إلى هذه الشدة

والقوة في القيام به ، لأن في العدل محاربة الهوى ومحاربة المبطلين .
والصورة الثانية ، قوله تعالى « شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين » أي كونوا شهداء لله . ففي هذه الكلمة يتحدث الكتاب الكريم عن الشهادة ، والشهادة من مؤيدات العدل إذا كانت لله ، وهنا أيضاً يرتفع المبدأ عن الاشخاص وليكونوا أقرب الناس اليه. فليقصد المرء بشهادته الله وحده، وليؤدها على وجهها ولو تناولت نفسه ، او الوالدين او الاقربين ، وختم الله هذه الآية بقوله:«وان تلووا اي يلوي الشاهد لسانه الى غير الحق ، او تعرضوا اي عن الشهادة فتكتمونها ، فان الله بما تعملون خبيرا»، وهذا تهديد لاولئك الذين يلوون او يعرضون، وخير ما نختتم به هذا الحديث ، هذه الآية الكريمة الدالة على أن يتمسك المؤمن بالعدل ويتجنب الظلم ولو مع عدوه وهي قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم (أي ولا يحملنكم بغض قوم) على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون .

محمد المجاهد الاول (١)

نحتفل اليوم ، ويحتفل معنا المسلمون في أقطار الأرض ، بذكرى مولد رسول الله محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه، ولو تخلّى العالم جميعه عن تأثير وراثاته وعصبياته ، لاحتفل معنا في هذه الذكرى من شرقه الأقصى إلى غربه الأقصى ، على اختلاف مله ونحله وآرائه ، وعلى اختلاف منازعه وبيئاته وأهوائه ، ذلك لأنه الرسول الذي لم يبعث لنفسه ولا لبني جنسه وحدهما ، وإنما هو هبة الخالق العظيم ، منحها الانسانية كلّها ، ليكون الرمز الحقيقي لأعظم ماتحلم به وتطمح إليه ، من السموّ في الروح والعقل والقوة والهداية ، وليكون ملتقى للعبقريات الصالحة الموزعة في عظماء الرجال ، في تسلسل التاريخ إلى اليوم ، وإلى مابعد اليوم ، وليكون مثالاً عملياً لأقصى مايستطيعه البشر من العدل والحق والرحمة والانسانية ، فما المسلمون إذن أجدر بالاحتفال بمولده من أية أمة في

---

(١) القيت في صالة سينما دنيا في الحفلة التي اقامها معهد النجاح بمناسبة المولد سنة ١٣٧٠

أي قطر ، ففي مولده عليه السلام ولدت حرية الانسان تصحبها العدالة بين أفراده ، فليس هنالك فضل لعربي على عجمي ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لقوي على ضعيف ، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى ، وفي مولده عليه السلام ولدت معاني الشرف والاخلاص والبر والايثار لوجه الله وحده ، لا لجرّ مغنم أو دفع مغرم ، وفي مولدة عليه السلام ولد النور والحياة لأمم ما كانت تعرف من البقاء إلا المطعم والمشرب ، وفي مولده ولد التشريع الخالد الذي كان أساسه أن الانسان أخو الانسان ؛ ليست العلاقة بينهما آلية مادّية ، بل روحية توجبها الأخوة ويرعاها العطف والاحسان ، وفي مولده عليه السلام ولدت القوة التي تدافع عن الخير وتحمي الرسالة ، ، واذا كنا لانستطيع أن نلمّ هنا بأطراف سيرته عليه السلام فلنتكلم بايجاز عن مولد هذه القوة ، فان حاجة العرب والمسلمين اليوم إلى القوة كحاجتهم إلى الحياة ، فكل حياة في هذا العصر لاتحميها قوة ، فهي موت ، ولكنه غير شريف ، وليس عيباً أن خاطب الله المسلمين بلهجة العزم قائلاً في كتابه : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ، فهذه الآية الكريمة تشير إلى أنه يجب على المسلمين أن

يعدوا من القوة منتهى مايستطيعون ، فان يكن في مقدورهم أن يبلغوا من القوة أكثر مابلغ أقوى الامم ثم قصّروا عن بلوغها يكونوا آثمين ، مافي ذلك شك ، ولو أن المسلمين عملوا بهذة الآية الكريمة لكانوا اليوم في العالم قوة يُحسب حسابها ويرهب جانبها ، بل لكانوا قوة تحقق التوازن الدولي وتنشر السلام في الأرض ، ولكنهم حين أغفلوا هذا الجانب العظيم جانب القوة طمع فيهم الطامعون ، فكانوا لذلك سبباً من أسباب التنازع والحرب ، فالحرب إنما يثيرها ضعف الضعفاء ، ولا يمحوها مثل تكافؤ القوى . فمحمد عليه الصلاة والسلام مع انه رسول سلام ووئام ، ومع أنه يحمل من المبادىء العظيمة والأخلاق الرفيعة والقرآن الكريم ، ما يُلين به القلوب المتحجرة ، مع ذلك ،علم أنه لايتاح له أن يبشر بالسلام والاسلام ، حتى يكون معه من القوة ماينا سب رسالته ، ووثق أن كل حق لاتؤيده قوة ، فهو أُلهيه الضعفاء وتسلية الحمقى ، وقنع بأن العهود والمواثيق والذمم لايخشى أحدٌ اقتحام حرماتها إلا إذا كان بجانبها من يحميها ويحاسب على خرقها .

جرب عليه السلام في مكه حين جاءته الرسالة أن يستعمل في قومه لسان

الحكمة والموعظة الحسنة، مع ما يحمل إليهم من الرسالة التي نقلتهم فيما بعد الى أن كانوا خلاصة البشرية، جرب ذلك ثلاث عشرة سنة فلم يصب نجاحاً يذكر في بث الدعوة، فهاجر الى المدينة يتكتل مع من آمن، حتى أوجد قوة أشعل بها بعد قليل حرب بدر التي أصلى بنارها كفار قريش الذين اضطروه أن يخرج من بلده، فكانت هذه الغزوة التي خرج اليها النبي بنفسه أول نصر له ولاتباعه، وما زال لهذا الانتصار الفضل الاكبر على المسلمين، وما غرّ النبي هذا الانتصار فاستنام. ولكنه عمل جاهداً لتنمية قوته، فانه ليس من العقل استصغار العدو مهما يكن صغيرا، حتي كان عنده بعد ذلك من القوة ما روّع بها ملوك الفرس والرومان، وحتى جاز له أن يعلن بعد ايجادها أن « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » فالجهاد في الاسلام من أصل الدين، بل هو عبادة من أكبر العبادات، ففي التنزيل قوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم، وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » وقوله تعالى: « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » وقوله تعالى: « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر

والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما ، درجات منه ومغفرةً ورحمة »

وفي الحديث عن رسول الله (ﷺ) قال : « لغُدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، وسئل رسول الله « أي الناس أفضل فقال : مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله » وقال : تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهادٌ في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه الى منزله الذي خرج منه بما نال من أجر أو غنيمة ، والذي نفس محمد بيده ما من كَلْم يُكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كُلم ، لونه لون الدم ، وريحه ريح مسك ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ، ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني ، والذي نفس محمد بيده ، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل .

هذا هو الجهاد في الاسلام ، وهذا محمد عليه السلام أول مجاهد في سبيل الله ، وفي سبيل حماية دعوته ، وأول واضع لقوانين الشرف والمروءة

والرفق في الحروب ، ولئن حث اصحابه وأتباعه على الجهاد في سبيل الله، لقد عرّفهم أيضاً أن الجهاد جهادان جهاد أصغر وهو افتحام الحروب لغايات نبيلة ، وجهاد أكبر وهو جهاد الأهواء والمطامع النفسية ، فانه لا تنفع شجاعة الابطال على الاعداء إن لم يقترن بها التغلب على الأهواء ، فكم من شجاعة مع هوىً أودت بأمم وحضارات ، هذه ناحية واحدة من نواحي عظمة رسولنا الكريم ، نحن في أشد الحاجة اليها والعمل بها، هي الجهاد بقسيمة الجهاد الأكبر والجهاد الأصغر. وليعلم المسلمون الآخير يرجى لهم ولا أمل ولا حياة ولا عزة ولا استقرار ، إلا بأن يقتفوا آثار رسولهم صلوات الله وسلامه عليه ، لا بالشكليات وحدها بل في كل شيء فهو الذي كان من قبل سبب سلطانهم على العالم كله ، وسيكون إن جعلناه قبلتنا وإمامنا سبب سيادتنا وكرامتنا من بعد ، فصلى الله عليه صلاة تامة تعطيه سؤله في بعث أمته مملوءة بالحياة والفضيلة والقوة .

الدين والنظام (١)

أول مظهر من مظاهر التقدم في أمة من الأمم، نزوعها إلى النظام في أعمالها كلها، وأول مظهر من مظاهر الضعف والتأخر ميلها الى الفوضى، ولا يشق المرء على نفسه في معرفة أبرز شيء في تكوين قوة الامم ورفعة شأنها، وسمو حضارتها، فانه النظام قبل كل شيء، ومهما تحفل الامة بعباقرة واذكياء وعلماء، ثم تفقد روح النظام فليست على شيء. فما هو النظام وما هي الفوضى؟ النظام أن يضبط كل انسان أعماله ويرسم لها خطة مستقيمة يسير عليها حياته، مع التقيد بالعقل العام عقل الجماعة. أما الفوضى فهي أن يسير في أعماله حياته على غير هدى، وكيفما اتفقت له، لا يعرف ماذا سيعمل بعد ساعة، ولا ينتهج في كسبه ولا في تربيته، ولا في علمه نهجاً معيناً، ويضيق ذرعاً بكل ترتيب وكل نظام، ويكره أن يطالبه أحد بملاحظة على تنسيق، أو يرسم له هدفاً أو غرضاً. هذه هي الفوضى

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

وذاك هو النظام . فأما الذين يؤثرون في حياتهم الفوضى على النظام ، فأولئك الذين امتن الله عليهم بالعقل فاهملوه ، وعيثت بهم الأهواء ، تصرفهم حيث تشاء . وما خلق الله العقل في الانسان إلا ليتمم له مانقصه من الغريزة الكاملة التي في الحيوان ، وما أراد أن يعوض له عن نقص الغريزة بالعقل الا ليمنحه ارادة يسير بها على حسب رغباته منفرداً ومجتمعاً ، فمن لم يستعمل عقله في تنظيم أعماله والسير بها فقد نقصت غريزته بالخلق ، ونقص عقله بالتخلق ، وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خلق هذا الكون على أبدع نظام وأدقه ، وربطه جميعاً بأسباب ومسببات ، فليس فيه ما لايسير وفق قدر مقدور من أدق الذرات إلى أعظم الكواكب ، إذا كان الله قد خلق خلقه على هذا النسق من الاحكام والنظام ، فمن المستحيل ان يرسل رسله ، ويوحي بكتبه بما يناقض النظام في التكوين ، بل يجعل نظامه التام في هذا الكون نموذجاً ظاهراً ، يدل الناس على ان يسيروا في حياتهم على النظام ، ولو أمعن الانسان النظر الى نفسه ، ورأى تركيب جسمه ، ودقة صنعه ، ثم فطن إلى النظام الدقيق الذي يجري فيه ، لحمله ذلك على تنظيم اعماله وعدم تركها نهباً للمصادفات ، ولقد

أرسل الله تعالى رسله ليسيروا بقومهم على نحو منظم حتى في عبادة ربهم ، فالله سبحانه لا يقبل عبادة عبده ، حتى تكون منظمة محكمة ، فالصلاة مثلاً لها ، وقتها وفروضها وشروطها ، فان أتى بها المتعبد قبل وقتها ولو بثوان ، او نقصها فرضاً أو شرطاً ، لم تقبل منه ، ولو استغرق فيها المتعبد خاشعاً خاضعاً ، فاذا كان الجسم لا يحيا الا بالروح والروح لا يسكن في جسم خلا من الرأس ، فروح العبادات الخشوع فيها ، ورأسها نظامها ، ويلاحظ النظام في صلاة الجماعة ايضاً ، يتقدم الامام فيتبعه المأمون بحركات متناسقة وأعمال متناسبة ، وكم حض النبي (ﷺ) على تسوية الصفوف حتى قال : « ان الله لا ينظر إلى الصف المعوج » وبالطبع ليس يريد الله منا التنظيم لنفسه ، بل يريده لنا لنطبع نفوسنا عليه ، وليس التنظيم من العبادات في الصلاة وحدها ، وانما هو في كل ما يتعلق من الدين بسبب ، من عبارات ومعاملات ومعتقدات . فاذا كان القانون ينظم تصرفات الانسان الظاهرة ، فالتشريع الالهي ينظم تصرفاته الظاهرة والباطنة ، فيدخل معه في النية والخطرة تخطر والفكرة تمر ، فيتعهد له ذلك كلّه وينظمه ، واذا أراد امرؤٌ أن يعرف ايُّ أمرين من امور المعروف خيرٌ عند الله ؟ فليعلم أن

أدناهما الى التنظيم أقربهما الى الله ، وأدناهما الى الفوضى أبعدهما عن الله ، وهناك عند بعض الناس شعور بأن الامر الذى يترك فوضي ، هو الأمر الذي فيه البركة ، مع أن البركة والفوضى لايجتمعان ، والانسان يشعر ببركة العمر وبركة الزمن إذا وزع أوقاته في أعماله توزيعاً عادلاً وأنجز كل مهمة له في وقتها ، وإذا ترك الأمور تعالج نفسها من غير ضابط ولا نظام ، فهناك محق البركة وضياع الوقت وتحكم الهوى ؛ فالدين والنظام توأمان ، وما يكره الدينُ مثلَ الفوضى . واستحكام الفوضى في الشرقيين من ضعف إرادتهم لامن تدينهم ، ولو تمكن الدين حقا في نفوسهم ، لتبعوه في كل وسائله وغاياته ، ولو تبعوه لكانوا مثالاً من النظام والاجادة ، ولكن ضعف وازع الدين في النفوس وضعف الادارة ، وتغلب الأوهام والشهوات ، كان سبباً في انتشار الفوضى .

ألا فليعلم الناس جميعاً إن الدين والعقل يأمران بالنظام ، ولا حيلة لمن تمسك بشرعة الدين أو بشرعة العقل في التخلص من ربقة النظام وعمر الفوضويين عمر هباء ، لايثمرون لانفسهم ولا لأهليهم ولا لمواطنيهم ، فلتُعنَ الحكومات بتوجيه الناس وجهة صحيحة منظمة ،

في آدابهم وتربيتهم وعلمهم وتجارتهم ، وفي كل مايمسهم من قريب أو بعيد ، ولترسم لهم ماينبغي أن ينتهجوه من الحياة المنتظمة ، فما أشد حاجتنا لذلك ، وما أفقرنا للنظام بدخل البيت والمدرسة والسوق والطرق والدوائر ، بل يدخل المساجد والمعابد ، بل ما أفقرنا إلى النظام يدخل قبل كل شيء إلى نفوسنا ، فقد نرى من الناس من يباهي بانه لايخضع لنظام ، ولا يتقيد به ، ليبدو أنه فوق النظام وفوق الناس . ولِيُعنِ الحكوماتِ علماءُ الدين وعلماء الاجتماع والأدباء والصحفيون ، فلكل العالم المتمدن أنظمة عامة في أنديتهم وطرقهم وبيوتهم ومطعمهم ومشربهم وتلاقهم ، فان لم ننتظم في سلك النظام ، فما نحن بامة جديرة بالاحترام ، تعتز بحاضرها كما تعتز بماضيها ، وإنما هملٌ ، لايزعنا دين عن فوضى ، ولا تجذبنا مدنية إلى نظام . ألا فليدع دعاة الدين الى النظام في جميع الاعمال الخاصة والعامة الدينية والدنيوية وليعلنوا ان الدين يأمر به ويحث عليه ويدعو له .

الامانة (١)

قال تعالى :

« إنا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولا » .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : أدِّ الامانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك . وقال : الامانة تجلب الرزق والخيانة تجلب الفقر . وقال : لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

الامانة: خلق إيجابي ، لا يستحق ان يوصف بها ، إلا من سنحت له فرصة الخيانة من غير ضرر يلحق به ، فأظهر المناعة وقوة الارادة ، والعفة المبنية على السمو في النفس والروح . ولو أن انساناً اعتزل الناس ولم يزاول عملاً لما جاز أن يسمى أميناً ، لأن الأمين من فتح له باب الى الخيانة قليلها أو كثيرها ، فأمُن ، والأمانة من الاخلاق التامة التي لا تصلح للتجزئة ، فكما لا يجوز أن يكون المرء نصف صادق ؛ ولا نصف

(١) القيت في الاذاعة السورية

عفيف ، لا يجوز ان يكون نصف أمين . فنصف الأمين خائن ، والأمين بالقليل دون الكثير خائن ، والأمين بحال دون أخرى خائن. والامانة خلق وجداني، يوجده ويزكيه، التربية الروحية السامية ،التي تستوحى من أشرف منازع التدين . فمن كان أميناً برقابة القانون ، أو برقابة الناس ، أو بخوف من عاقبة فليس بأمين ، فالأمانة تفيض من النفس الزكية الطاهرة فيضاً. لا تضطر اليها اضطراراً بقوة السلطان، ومن كانت أمانته بقوة السلطان فأمانته مجلوبة بالرياء والخوف ؛ إذا انكشفت عنه رقابتها ، ارتد الى الخيانة مسرعاً ، والأمانة من أعظم الكنوز واحسنها عائدة على صاحبها ، فاذا وثق الناس بأمانة انسان ، كانت له هذه الثقة ذخراً في الدنيا قبل الآخرة ، وما حرص الناس على شيء حرصهم على الرجل الأمنة ، حتى إذا وجدوه تجاذبوه من كل مكان ، فرفعوا ذكره ، ووضعوا وزره ، وأفاد غنىً طيباً ، ورزقاً غير محسود عليه . وما ادخر (ﷺ) لتبليغ دعوته ونشر رسالته شيئاً أثمن ولا أنفع من الأمانة ، فقد اختبره قومه عن غير قصد صغيراً وشاباً وكهلاً ، ثم توجوه بلقب الأمين، قبل أن يعرفوا انه نبي مرسل، فلما جاءته الرسالة لم يجرؤ أحد وإن كان ألد الخصام أن يتهمه بالخيانة أو

التضليل ، فاستسلم لدعوته من تجرد عن هواه وابتغى الخير والحق ، وأعرض عنه من غلبت عليه الشقاوة وأسلم أمره لشيطانه وهواه .

والأمانة من أخلاق القوة ، لا قوة النفوذ والسلطان ، ولا قوة الجاه والغنى ، بل قوة في النفس تنفي عنها ضعف الانقياد الى حب الذات الذي يورد التهلكة ، حين يعمى صاحبه بالمغنم من أقرب طريق وأوعره وأخبثه ، ولو أحب الخائن ذاته عن بصيرة وتعقل ودين ، لسلك بها الى المغنم الطيب طريق السلامة والكرامة والأمان . وليست أمة من الامم ولا ملة من الملل إلا وللأمانة عندها المكان الاعلى ؛ ولقد حضت عليها وجعلتها ميزاناً للدلالة على مدى تأثر المرء بالمبادىء السامية ، ولم يغفل الاسلام قرآنه وسنته أمر الأمانة والحض عليها ، ولا أمر الخيانة والنهي الشديد عنها . ولقد جعل القرآن الامانة من صفات المؤمنين ، وجعلت السنة الخيانة من صفات المنافقين ، فقال تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » الى ان قال « والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون » وقالت السنة في صفات المنافقين « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » ولم يكتف الكتاب الكريم بأن جعل الامانة من صفات المؤمنين ، بل عرض في

سورة ثانية لانواع الخيانة واستوعبها، ونفى ما ظاهره منها، عرض ذلك عرضاً موجزاً دقيقاً في قوله : « يأيها الذين آمنوا لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وانتم تعلمون » جعل الخيانة ثلاثاً : خيانة الله، وخيانة الرسول، وخيانة بعضنا لبعض . قد نفهم كيف تكون خيانة بعضنا بعضاً، فكيف تكون خيانة الله ؟ أعظم خيانة لله جحده وإنكار وجوده، وتكذيب رسله، بعد أن خلقنا ورزقنا وأفاض علينا من نعمه، ومن خيانة الله تعطيل فرائضه التي أوجبها علينا، والتي لولاها لكنا هملاً قد فقدنا الرعاية، وما الرعاية إلا الامتثال لأوامر الله واجتناب نواهيه . واما خيانة الرسول، فأكبرها تكذيبه وإنكار رسالته بعد أن دلت الدلائل الظاهرة على صدقه وأمانته، ومن خيانة الرسول، الانصراف عما شرع لنا عن ربه إلى ماشرع غيره من خلقه بعد اعترافنا بانه أعظم رمز للتفوق العبقري في الأمة العربية، بل في في الانسانية، مع مايتصف به عليه السلام من اسمى ما يمكن أن يتحلى به الانسان من كمال، وفي الآية قوله تعالى : « وتخونوا أماناتكم » وقد جمعت هذه الجملة الصغيره، كل ما يتعلق بأمانة بعضنا لبعض، فأمرنا الله بهذه الآية بمراعاة كل مايسمى أمانة ونهانا عن كل

مايسمى خيانة ، وما من عمل من أعمال الانسان الذي يعيش مع الجماعة الا والامانة ضرورية لبقائه واصلاحه ، والخيانة داعية لحقه وفساده . ويختلف عظم الامانة وقيمتها ، وجرم الخيانة وفظاعتها ، بمقدار مايتعلق بصاحبها من حقوق المؤتمنين ، فأعظم الامانات ماحملها كبار المسئولين في كل دولة نحو رعيتهم وأقلها أمانة الانسان لنفسه. وما بينهما درجات تعلو فيها قيمة الامانة حتى تلحق بالامانة العظمى ، وتهبطُ حتى تدنو من الامانة الصغرى ، ولكي يستطيع الانسان أن يعرف قيمة الامانة التي حملها ، ينبغي له أن يعلم موضعه ، وما يتصل بأمانته من حقوق غيره ، فاذا علم ، حاسب نفسه ، وأشهد ربه واستقبل دينه وضميره ، ثم عاهد الله ، ليقوم من بمصلحة المؤتمنين على خير مايرجون ، فاذا كان رئيساً في دولة ، نهض في مصلحة المواطنين الداخلية والخارجية ، المادية والمعنوية ، الدينية والدنيوية ، السياسية والاجتماعية والعلمية ، كما يرغبون أو كما ترغب أكثريتهم الساحقة ، فالحاكم العادل الأمين ، من وفر لرعيته اكبر مقدار ممكن من السعادة بأقل مقدار ممكن من الالم ، من غير تفريق في المعاملة بين أمير وحقير ، ولا بين كبير وصغير ، ولا بين بلد وبلد ، ولا بين قرية وقرية ، واذا كان موظفاً

فالأمانة لديه أن يقوم بواجبه فيها خير قيام، في نطاق ماحدد له من وقت وعمل، وأن يكون أصحاب المصالح لديه سواسيه، لايُبعد المرأة لاناصر لها، والفلاح المستضعف، والفقير العاجز، ليقرب القوي المتنفذ، كما لايجعل الوظيفة أداة استغلال، ينتقم فيها من العدو، ويقرب فيها الصديق. فكل من مطالبته بحقوقهم سواء؛ وكلهم في التكليف بالضرائب سواء. كل هذا من أمانة الوظيفة، ومن أماناتها البارزة أيضاً الا تطمح عينيه لمال قل أو كثر إلا ما سمح له به القانون، وإلا كان خائناً. وويل لأولئك الذين يجعلون من وظائفهم طريقاً للاثراء غير المشروع، وإذا كان تاجراً فمن الامانة أن يكون صادقاً في بيعه وشرائه، ناصحاً للناس رفيقا بهم، لايستغل المصائب العامة والحروب، ليدخر أقوات الناس وضرورياتهم وما يحتاجون، ليغتنى على حساب نكبة المعوزين. والشركة في التجارة أمانة، وما يمحق البركة في الشركة مثل الخيانة، وتَصدُق الخيانة ولو على قرش واحد يستأثر احد الشريكين به دون شريكه، واذا كان عاملاً فالامانة منه لصاحب العمل أن يكون في غيابه مثلَه في حضوره، وإذا كان صاحب عمل فتقتضيه أمانة عماله ان يحنو عليهم حنوه على أولاده بالرفق ولين الجانب

وزيادة الأجر . هذه من الأمثلة البارزة ، ولا نقدر على استقصائها ، إذ الامانة كما قدمنا تتعلق من كل فرد بنصيب على قدره ، فهناك أمانة الآباء للأبناء ؛ أن يعلموهم ويهذبوهم ، ويتعهدوا دينهم وأخلاقهم ، ويلاحظوا تربيتهم النفسية والعقلية ، وأمانة الابناء للاباء ، ان يبروهم ويحترموا ابوتهم ويجازوهم على ماقدموا لهم من خير وجهد في سبيل اسعادهم ، وأمانة الجار للجار ؛ أن يرعى حرمه ، ويتجنب إيذاءه ويستجيب للهفته ، ويفرح لفرحه ويشاركه أحزانه ، وأمانة الاستاذ لتلاميذه ، أن يبذل جهده في تعليمهم وتثقيفهم وتخليقهم ، من غير تعالٍ عليهم واستخفاف بهم ، وأمانة التلاميذ لاستاذهم ان يقدروا جهده ، ولا ينسوا فضله ؛ ويحترموه احترام الآباء ، فالآباء إذا كانوا سبب وجوده فالاساتيذ سببٌ كونه موجوداً نافعاً هذه هي الامانة فمن اتصف بها فقد أرضى الله وضميره والناس : ومن أعرض عنها أو عن بعضها فقد خان الله وضميره والناس ، وتختلف الخيانة على قدر الامانة ، فالامانة العظمى تقابلها الخيانة العظمى ؛ والامانة الصغرى تقابلها الخيانة الصغرى ومابينهما دركات تتفاوت سوءاً ، فليضع امرؤ نفسه حيث شاء ، فالامانة شرف وعزوجنة ورضوان من الله ، والخيانة منعة وذل ونار وسخط من الله .

مفاتيح الخير ومفاتيح الشر (١)

قال رسولنا العظيم صلوات الله عليه وسلامه :

ان من الناس ناساً مفاتيح للخير مغاليق للشر ، وان من الناس ناساً مفاتيح للشر مغاليق للخير ، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه ، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه .

يلتفت المرء حوله، فيصادف من إخوانه وعشرائه وذوي قرباه ومواطنيه من أعده الله للخير واهله للمعروف، فلا يصدر منه إلا الخير والمعروف ، ولو حاول غيرهما لارتد سريعا إلى طبعه النقي ونفسه الطيبة.

ومنهم من غرس في طبعه الشر وكمن في غريزته السوء واستولى على توجيه عقله وعواطفه البغي والضر ، فلو التمس الناس له طريقاً من الخير لاعجزه السير فيها ، وإن مضى فيها قليلاً ظلع ثم سقط فكم من خير شاع بين الناس وانتفع به كثير منهم كان مفتاحه رجلٌ خير

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

وكم من حادثة سوء كان يمكن أن تطفأ، أوقد نارها رجل شر حتى اشتعلت فالتهمت القريب والبعيد، وأتلفت كل شيء أتت عليه.

فالخير ثمرة لشجرة طاب أصلها وطابت تربتها، فآتت أكلها نافعة مباركة، والشر ثمرة لشجرة خبث أصلها وخبث مغرسها فأنتجت الصاب والعلقم، وآذت من تنكر ومن تعرف ومقياس الخير من إنسان الخير، ومقياس الشر من شيطان الشر، يقدران بما لكل منهما من خطر في مجتمعه. فكلما ارتفع خطر الرجل في قومه عظم خيره أو عظم شره، واقترن اسمه بالخير ان كان من أهله وبالشر إن كان من أهله، وما ينخدع الناس فتخفى عنهم حقائق الاعمال، حتى يبتئسوا من الشر وهو خير، ويتهللوا فرحين بمظهر الخير وهو شر، ولئن كان شيء من ذلك لن يستمر طويلا، ثم لاتلبث الحقائق ان تنهض تدفع ركام الاضاليل عن عواتقها، وتبرز قوية تضع الامور في نصابها، وترد لكل ذي حق حقه، ولكل ذي باطل باطله.

والخير والشر في الامم يتسابقان، فيسبق الخير وينمو ويترعرع في أمة قويت نفوس افرادها؛ وكانت صحيحة من العلل مهذبة مترفعة عن الدنايا، ويكون ذلك اذا هيئت البيئة الصالحة للطفل والناشيء

والمراة والرجل ، ويسبق الشر في أمة هزلت نفوس أفرادها وانتابتها الاوبئة الاجتماعية حتى امتازت بالكيد والحقد ونضح منها الفساد والشر مختارة او غير مختارة .

والمرء في حالة طفولته طاهرُ النفس نقي من الادران ، وانما يفسد دخلته ويغير فطرته ابواه والمجتمع الذي يعيش فيه ، فاذا حضنته أم تربت على الخير ،وغذته اياه مع لبنه ، وأشرف على تربيته أب ينزع إلى الخير ويغرسه في نفسه، ثم أوى في تعلمه الى مدرسة تُعنى بتزكية نفوس طلابها ، وتُعنى بأخلاقهم وتربيتهم ، أكثر مما تعنى بعلومهم ، وتكون بهيئتيها التعليمية والادارية مثالا رائعا من الخلق الرفيع ، ومن حب المعروف والميل الى الخير بأقوالها وافعالها ، ثم تنزه في حياته ومعاشه عن الامتزاج بمن ليست سيرته في الحياة ولا منهاجه إلى الخير ، إذا تمّ كل ذلك لانسان ما ، فقد يضمن له أن يكون رشيدا خيرا كريم المنزع بعيدا عن الضر والاذى ، لاتحدثه نفسه بشر ولا ينال احداً منه مايسوء .

أما اذا عاش في طفولته في كنف أم هي شدةٌ انجذابا الى الشر منها الى الخير ، وتعهده أب هو أشد إمعانا في الشرور وسوء الخلق ، ثم

عمد في تعلمه الى مدرسة هزيلة في توجيهها ، تعلم الضعف في الارادة والخلق ، وهي بهيآتها جميعها لاتبالي بالخير ولا تحض عليه ، ثم اندمج في مجتمع مملوء من الشر والفساد ، فمن أين يرجى للطفل ان ينشأ على حب المعروف والالتذاذ بفعله ؟ ومن أين يتسنى له أن يصير مفتاحا للخير مغلاقا للشر .

على أن الشر لايلقن في أكثر الاحوال تلقينا ، ولا يعلم تعليما ، وانما يقتبس اقتباساً ويؤخذ تأسيا وتأثيراً ، والنفوس البشرية تنزع إلى الشرور أكثر مما تنزع إلى الخيرات ، لانها بحكم ماديتها تنجذب الى الارض ، والارض مالم ينظر فيها الى السماء ويتعلق بنواميسها ، خالية من الروح ، واذا خلت الارض من الروح فلا يُرجى منها الخير . ولا يفصلنا عن التحاقنا المعنوي بأرضنا الخاسرة ، ويصلنا روحا ومعنى بالسماء إلا أن تتضافر الجهود ويتحد الاتجاه في الاصلاح الخلقي والروحي ، داخل البيت من الابوين ، وداخل المسجد من الواعظين ، وداخل المدرسة من المعلمين ، وداخل الدولة من الرؤساء والمرؤسين .

فاذا تعاون كل هؤلاء على بث روح الخير بين الناس ، وعلى تنظيفها من خبث الشرور ، كان الامل عظيماً في تحقيق حلم المدنية الفاضلة التي

كان قديما يصورها ويبشر بها الحكماء والفلاسفة ، دون أن يبلغوا بها الى الواقع ، ولقد حقق رسولنا الاعظم (ﷺ) هذا الحلم حلم المدنية الفاضلة والعصر الذهبي حققه عملياً باسمى مما كان يتصوره الحكماء ، حققه في عصره وعصر صحابته من بعده ، وتابعيهم وتابع تابعيهم. ذلك لانه احتاط للامر فسعى لتهذيب المجتمع من جميع أطرافه ، ولَمَّ شعثه وصبغه صبغة واحدة ، ولم يدع مجالا لأن يؤثر في عمله فاسدٌ على ما أصلح ولولا رسول الله (ﷺ) وما أتى به من عند الله من رسالة الاسلام ، ولولا تحقيق هذه الرسالة ، أثرها الخالد العظيم ، لضربنا يداً بيد يائسين من تحقيق اصلاح الانسان ، وحمله على الخير ، ولكن رسول الله (ﷺ) بعث فينا رجاء قوياً في امكان ذلك الاصلاح ، وذلك بنجاح دعوته وتأثير رسالته ، حين أخرج للناس قوما كانوا بدائيين ، ثم أصبحوا سادة الناس مروءة وشرفا ودينا ، قد اندمج بعضهم ببعض اندماجا كليا ، حتى لينعم أحدهم بنعمى غيره كأنها نعماه ويبتئس ببؤس غيره كأنها بؤساه .

وما ذلك إلاّ لعناية الرسول (ﷺ) بامرهم ، واتجاهه لتهذيبهم

تجاهها عملياً ، خاليا من كل مالا يمكن أن يكون ، مما يعاكس الفطر الاصلية أو يصطدم مع الغرائز الثابتة ، وما زال بهم عليه الصلاة والسلام حتى محصهم مما كان تلغل بهم من فردية مضرة وشر مستحكم ، واستبدل بها غيرية ينسى فيها أحدهم نفسه ليقوم بمعاونة أخيه وتقديم الخير له وابعاده عما يضره .

ورسول الله (ﷺ) الذي عالج من اوائك ماعالج ، حتى صنع منهم هداة البشر وسادة الناس ، ما يزال فينا حيا بشريعته الرائعة واقواله الحكيمة . وما تنفك هذه الشريعة وهذه الاقوال أروع ماخلف رسول لامته ، من تنظيم يخاطب به العقل والارادة والعدل ، ومن حكم يخاطب بها القلب والروح ، ويملأها رحمة وحنانا وايثارا وخيرا . ولقد حث على الخير حتى جعل على كل عضو من الانسان صدقة ، أي جعل على كل عضو صغير أو كبير ، عملَ خيرٍ ينبغي أن يقدمه كل يوم ، وعدد عليه السلام من جملة الصدقات أي من جملة أعمال الخير : الكلمة الطيبةَ يقولها المرء لاخيه ، وازالة الأذى عن الطريق ، وان تُعينَ انساناً فتحملَه على دابته . عدد عليه السلام كثيراً من هذا الذي يراه الانسان ضئيلا من أعمال الخير ، وهو عند الله عظيم . تشجيعا للانسان

على الا يهمل عملاً من الخير ولو رآه ضئيلا ، فرب خير لا يكلف فاعله شيئاً ، يكون أثره كبيرا عند من قدم اليه . ولذلك رغّب الرسول بفعل الخير ، وأبان للناس ثوابه الجزيل ففي الحديث : « من قضى لاخيه المسلم حاجة كان له من الاجر كمن خدم الله عمره » وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) « من يكن في حاجة اخيه يكون الله في حاجته » وفي الحديث أيضاً عن رسول الله (ﷺ) غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس رُكي كاد يقتله العطش فنزعت خفها فاوثقته بخمارها فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك » .

هذا المعروف كان له هذا الاجر وهو مع حيوان ، فما بالنا مع انسان ولا يُضيع الله أجراً على خير مهما يضؤل في الدنيا قبل الآخرة ، كما لا يُضيع عقابا على شر مهما يضؤل في الدنيا قبل الاخرة ايضاً قال الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » وختاما يقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه : « خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره ، وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره » .

المسجد في الاسلام (١)

قال تعالى في كتابه الكريم :

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر اولئك حبطت اعمالهم وفي النار هم خالدون ، انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة ولم يخش إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين » .

أيها المسلمون ! لقد اضحى المسجد اليوم كالمسلمين انفسهم ، فقدمن حياته كل شيء إلا مظاهر العبادة التي يتقلص ظلها أيضاً ، وليس ببعيد الزمن الذي لا يؤم المساجد فيه الا الشيوخ ، ثم يأتي بعده حين تصبح المساجد فيه آثاراً ، يقال فيها كانت هذه مساجدَ يؤمها المسلمون لاقامة صلواتهم ، ان استمر الحال على هذا المنوال لا سمح الله .

ان تاريخ المسجد في الاسلام هو تاريخ الاسلام نفسه ، وليس

---

(١) القيت في مسجد عيسى باشا ونقلتها الاذاعة السورية .

من شيء أحسن إلى الاسلام وهو دين ، وأحسن اليه وهو دينا وسياسة وخلافه ، وأحسن اليه وهو علم ، وأحسن اليه وهو قوة وشجاعة وحرب ، مثل المسجد . ذلك ان المسجد عند المسلمين ليس هو معبدا فقط بالمعنى الذي تفهمه الملل كلها من معابدها ، وانما المسجد عندنا نحن المسلمون كديننا ، فديننا ليس دين طقوس وعبادة فقط ، انما هو هو دين ليس فيه الا ما يصلح الانسانية ويهذبها ويسمو بها ، فقد تكافأت فيه القوى ، وتقابلت فيه المطالب ، فهو دين إلى جانبه دنيا ، وعبادة يؤاخيها العلم ، وزهد من ورائه سعي ، وعدل في رحمة ، وشجاعة في غير ظلم ، وقدرة في سياج من حكمة . عقل يسيطر على الهوى ، وروح تسيطر على العقل ، ودين يسيطر على الروح ، هذا هو الاسلام.

ولقد كان المسجد في عزة الاسلام أخصبَ حيوية واكثر حركة وأمرع بركة ، من كل مكان ، كان في عهد رسول الله (ﷺ) نادي القوم ، لايحزبُ المسلمين أمرٌ ولا تعوزهم حاجةٌ ولا يتطلعون إلى معرفة ، ولا يعقدون لواء لحرب ، ولا يرفعون راية لصلح ، الا وُينادون الى المساجد ، يسمعون في هذا كله فصل الخطاب ، من رسول الله (ﷺ) ثم لايختلف اثنان الا وقاضيهم في المسجد ، ولا يغيب عن

أحد حكم في فقه ، أو يعسر عليه مراد من آية ، أو يجهل من أمور دينه أو دنياه ما هو بحاجة اليه ، إلا ويجد مايريد في المسجد ، ففي المسجد على عهد رسول الله (ﷺ) وعهد خلفائه الراشدين كل ما كان المسلمون يصبون الى تعلمه أو علمه ، وتطور المسجد زمن بني أمية حتى كثرت فيه حلقات العلم والوعظ والذكر والقصص ، فحلقات للمجتهدين من التابعين الذين يستنبطون من كلام الله وكلام رسوله أحكام دينهم ، وحلقات للمختلفين في المذاهب والآراء ، وحلقات للقصاص دعاة الدولة . فهذه حلقة الحسن البصري امام التابعين وشيخ الواعظين ، وتلك حلقة واصل ابن عطاء وعمر بن عبيد ، وهناك حلقة عطاء بن ابي رباح ، امام الفقه والحديث . أما في العصر العباسي فقد كان المسجد آية من الآيات ، كثرت في هذا العصر العلوم ، وتشعبت نواحيها ، وكثرت المذاهب ، وتشجرت فروع الحديث ، ونهضت العلوم العربية وآدابها ، ودخل علم التوحيد ومعه الفلسفة . وما كان لكل ذلك من جامعة تجمع شمل هذه الالوان ، من المعارف والعلوم والعبادات والثقافات ، غير المسجد . فالمسجد كان معبدا وجامعة ، معبدا كما ينبغي أن تكون المعابد الاسلامية ، وجامعة كأحسن مايتصور العقل

الحديث من جامعات ، ولقد كانت المساجد في الأندلس أوسع مجالا لانواع العلوم حتى العلوم التي نسميها عصرية وحديثة ، فعلوم الطبيعة والكيمياء والطب والنجوم وما إلى ذلك ، علوم جامعاتها المساجد . ولقد كان يؤم هذه المساجد من الاقطار الاوروبية الايتالي والفرنسي والانكليزي ، ليستفيد هذه العلوم من علمائها المسلمين ، كما نفعل نحن اليوم حين نرتاد الغرب نلتقف علومه ، وما له علينا في ذلك من فضل ، فانه إنما يرد دينا عليه ، ولقد كان ممن قصد مساجد قرطبة ليأخذ علوم المسلمين من شيوخها بابا روما نفسهُ الملقبُ باسم سلفستر الثاني ، فانه لما عاد يحمل العلوم التي كان الغرب يستنكرها اتهموه بالسحر ، وهمّوا بقتله ، لغرابة ما كان يحمل اليهم من العلوم ، ولا ننسى في مصر الجامع الازهر ، فكم أخرج من علماء ومن كتب ومن مباحث منذ الف سنة الى يوم الناس هذا ، وخلاصة القول إن أمة من الامم لم تكثر فيها العلوم والثقافات والكتب كثرتها في الامة الاسلامية ، حتى ليستغرب المستعربون أن يكون لمؤلف واحد من الكتب ، ما لو قسم على ايام حياته كلها لكان نصيب كل يوم من أيام حياته مايجاوز الثلاثين أو الاربعين ورقة كتابة فقط . وما هذه الثروة الهائلة من العلم إلا

نتاج المسجد . والمسجد في ذلك رمز عظيم للاسلام الذي هو دين يحمل راية العلم والعقل قال تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » وقال « هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون » وقال : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

هذا أيها المسلمون هو المسجد في تاريخكم، كان موئلا للناس جميعا على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم وآرائهم ، كل يجد فيه بغيته ومتعته وأنسه ولذته ، من علم وموعظة وذكر وفائدة ، حتى إذا دنا وقت الصلاة وأذن المؤذن لها ، وقف الناس جميعا يؤدون صلاتهم ، وراء امام واحد ، قد نسوا كل شيء إلا العبادة والخضوع لخالقهم تعالى . وما كان يقوم بامامة المسلمين وخطبة جمعهم إلا خليفة المسلمين، أو من ينيبه الخليفة من أولى هذا الشأن من كبار العلماء، وما كان يستنكف عظماء الناس وعليتهم وموظفو الدولة من الحضور الى المساجد ، بل كانوا قدوة الناس فلما تفوتهم جمعة أو جماعة ، فالمسجد كان حياة دعوة الدين من وجوهها كلها . لذلك كان كما حدث عنه النبي (ﷺ) بقوله : « أحب البلاد إلى الله مساجدها وابغض البلاد الى الله أسواقها » وكما قال رسول الله (ﷺ) « من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة »

فعمارة المساجد ليس هـو بناءَها بالحديد والتراب وزخرفتها فقط . انما هو ايضا بعمارتها المعنوية بالصلاة والعبادة والعلم ، وماعمارتها ايضا الا بالاقبال عليها والدعوة لها . والسعي لتكون اكثر فائدة وأفضل غايه واكمل نورا ، وفي الحديث « من غدا إلى المسجد أرواح أعد الله له نزله من الجنة كلما غدا أو راح » .

الغش (١)

ما يؤآخذ الله أحداً بشيء كما يؤاخذه بذنب يقترفه بالتعدي على حقوق غيره ، ذلك ان المعصية التي يرتكبها المرء ولا يجاوزه ضررها الى غيره ، فتلك معصية قمينة أن يغفرها الله وان أخلص صاحبها في التوبة، فتركها مسرعاً، وندم على فعلها، وعزم على أن لا يعود، والله أرحم من أن يصر على تعذيبه وقد أخبت له وأناب اليه مستسلماً طائعاً . أما المعصية التي تمتهن فيها حقوق الناس وتكتسب بايذائهم ، فتلك معصية لا يغفرها الله حتى يسترضى صاحبها من مسهم بايذائه ، أو نالهم ضر بسعيه . فالله يغار على خلقه من أن يصيب بعضهم بعضاً بسوء . والسوء أنواع : فمن الناس من يعتدي على غيره بقتله أو أخذ ماله ، ومنهم من يعتدي عليه بلسانه أو يده ، ومنهم من يعتدي عليه بخداعه والعبث بحريته ، ومن أشد أنواع الاعتداء: الغش ، وهو موضوع حديثنا لهذا

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

اليوم . فالغش نوع من الخداع الممقوت به، يخفي الغاش العيب في سلعته ويزينها بما ليس فيها ، ليموهها على المشتري ، فينخدع ويجلب إلى داره بضاعة ظاهرها فيه الرحمة وباطنها من قبله العذاب ، وما يقوم بهذا الغش الا من غلبت عليه الشقاوة فآثر المال على المروءة والدين والشرف، على انه لو فكر من يُغش الناس قليلا لعلم انه خسر الدنيا والآخرة ، وفي الحديث « مر النبي (صلى الله عليه وسلم) برجل يبيع طعاماً فأوحى اليه جبريل أن أدخل يدك في جوفه فأدخل يده فاذا هو مبلول فقال النبي (ﷺ) ماأراك إلا قد صنعت خيانة في دينك وغشاً للمسلمين »ومن أفظع الغش، أن يغش البائع من استسلم لمعرفته وشرفه وذمته، فخدعه وخانه ، وأفظع منه ان يستسلم الى البائع الضعيف الذي لاناصر له من امرأة أرملة ، أو شيخ عاجز، أو صغير لايفقه شيئاً . ثم يبيعه أرداً ماعنده خادعاً ماكراً غاشاً ، وما من عمل أو صنعة أو تجارة الا ويدخلها الغش بانواعه كلها من مضر وأشد ضرراً . فالعالم والمدرس والموظف من جهة ، واصحاب الصناعات والمتاجر وبائعوا الاقمشة ومختلف الاطعمة والفواكه واللحوم من جهة ثانية. كل اولئك يمكن أن يدخل الغش الى أعمالهم ، بل المؤسف ان يكون الغش غالباً على

أعمالهم ، بل المؤسف حقاً أن يجهد الانسان في التفتيش عن الناصح الذي لا يغُش أو على الاقل الذي لا يغُش إلا قليلا ، فلا يكاد يجده ، وهذه ظاهرة خطرة تدل على ما انحدرت اليه شعوبنا من انحلال الخلق والدين . وقديما كان يمنع الناس عن أن يغشوا اخوانهم في الدين ، وإخوانهم في الانسانية ، خوف الله ، والمحافظةُ على هذه الاخوة التي لا يعدلها ربح ولا مال ، عند من لا يعيشون لبطونهم وملذاتهم فقط ، عند من يشعرون أن في الاستقامة والنصح والاخوة والخلق الرفيع والوجدان الطاهر والضمير النقي ، من اللذة والسعادة والمتعة ، مالا يوازيه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وتطاول البنيان والانعام والحرث . على أنه من الخطأ والوهم أن يظن الغاش انه بغشه يكسب مالاً والناصح يخسر مالاً ، بل الامر بعكس ذلك ، فالناصح يكسب المال الوفير الحلال ، والغاش يربح سخط الناس وهو إن يكسب مالاً فذلك مال قمن ألا يبارك له فيه ، مال حرام يسلك الى الغاش سبيلاً خبيثة لئيمة ، مملوءة بأشواك البغي والعدوان . فليحذر المرء ان يخدعه الشيطان ويزينَ له غش الناس طمعاً بالربح ، ومن فعل فقد انغش للشيطان واستجاب لندائه وغش الناس . فكلنا يحب الناصحين

ويسعى اليهم ، ولو بعدت أماكنهم ، ويكره الغاشين وينفر منهم ولو جاورتنا اماكنهم ، حتى الغاش نفسه يحب الناصحين ويثني عليهم ، ويكره الغاشين ويذمهم ، وهذه الحال من الغاش هي القاضية ، فليجلب إلى نفسه الأمارة بالسوء مايحبه من الناصحين ، ليكون محبوباً من الناس ومن ضميره ، ولو رزق الانسان ان ينصف نفسه ولا ينظر اليها نظرة الرضى ، لبرىء من كثير من الاثم ، ولاستراح واغتبط ونعم. ومن انصافها ان لايعامل الناس الا بما يحب ان يعاملوه به ، فان رضي عن غش الناس له - وحاشاه أن يفعل - فليغش الناس وان غضب وصب عليهم ألواناً من السخط والكره والغيظ والألم ، فليحذر الغش ، وليعلم أنه مصيبه من ذلك ما أصاب غيره. وكل ذي عمل أو تجارة أو صناعة عالم أو جاهل صغير أو كبير ، رجل أو امرأة يعلم كيف يكون الغش ؛ ويعلم الطريق للخلاص ان أراد . والطريق للخلاص من الغش أن يعمل بما شرع الله له من البيان للناس والتوضيح لهم ، فلا يخفي عنهم عيباً ولا يستر قبحاً . وفي الحديث قال رسول الله (ﷺ) « المسلم أخو المسلم ، ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً فيه عيب الا بينه له . واذا كان لايخلو مكان للبيع والشراء من أن يحتوي على الجيد والرديء وما بينهما ، فليعرض البائع أو

الصانع او العامل ماعنده، وليصفه وصفاً صادقاً، ولا يتوهمن أنه لا يبيع الجيد، ويبقى الردىء لديه مطروحاً، فلكل من الجيد والردىء وما بينهما مشترون بحسب قدرتهم على دفع الثمن. أما أن يبيع كل ماعنده باسم الجيد ليزداد ربحه، فهذا يزداد من سخط الله أضعاف ما كسب من مال، وشر من هذا ان يعمد الى الغش عمداً أو يصنعه بيده. ولكل تجارة أو صناعة أو عمل، آفةٌ من الغش تكون في الذروة من الضر أحياناً، وتكون عادية أحياناً أخرى، وسنعرض الآن لضرب المثل بعض آفات الغش لبعض الاعمال، فمن آفات الغش عند التجار ان يقسم تاجر الاقمشة ان هذا القماش من بلد كذا وهو في الحقيقة من بلد آخر، وأن يخفي فيه بعض السقط ليبيعه على أنه لاعيب فيه، وأن يحلف بكل محرجة من الايمان انهذا أجود شيء وجد في الاسواق، والواقع غير ذلك. أما تجار المواد الغذائية فلا تسل عن كثرة ما يدخل الغش الى بضائعهم، فالسمن العربي يُغش بالسمن النباتي، وزيت الزيتون بغيره من الزيوت، والسكر والرز والبن وغير ذلك. أما الألبان والاجبان فيعيا الانسان ان يجد بعد التفتيش حليباً غير ممزوج بماء، وأما اللبن الرائب والجبن، فأن يظفر الانسان بكنز اهونُ عليه من

أن يظفر بلبن او جبن غير مسلوب النعمة ،إلا ان يسعى إلى منابعه في القرى، وحتى هذه قد تسرب اليها داء الغش ، بعد ان كانت لا تعرف إلا النصح ، ومن آفات تجار بائعي الخضر والفاكهة ان يدس في الميزان أو في الوعاء أرداً ماعنده مما يستحق احياناً ان يوضع في صناديق القمامات ، وشر من ذلك ان يستأ منهم المشتري على إرسال أجود ماعندهم فيجدوا ذلك أفضل فرصة لنفاق أخبث الفاكهة وأشنع الخضر، وكثيراً مايعجبك عرض الفاكهة ،فاذا حاولت أن تشتري حذرك أن تمد يدك ثم أعطاك مايخفى ، وياويل ما يخفى ، ومن آفات الغش في الصناعات البسيطة كالخبازة والقصابة ماينسينا كل غش ، فقد أذاقنا اكثر الخبازين في أيام الحرب الصاب والعلقم ، وأذاقونا خبزاً فيه من العناصر غير القمحية مالله به عليم ، فدخل في محتوياته الرماد والتراب والنخالة والوسخ والزيوان ، وهؤلاء أصلحهم الله وألهمهم رشدهم يستغلون الازمات العامة ليضيقوا على الخلق ،ويضروهم في عدم إنضاج الخبز وتخليطه وعدم النظافة فيه ،في سبيل أن يجنوا من وراء ذلك الربح الوفير ، وما أقذر مالاً هذا سبيله ، وما اظن الله سيدعهم يفلتون من يده في الدنيا قبل الآخرة ، اذا أصروا على ماهم فيه من

الاضرار والعبث بحياة الفقراء والمساكين والارامل والايتام. واما القصابون فهم هم من لدن آدم الى اليوم، لهم في الغش أساليب مبتكرة، وعند التقي منهم كل اللحم يسمى لحماً، ولو أراد أن يأخذ لبيته لحماً لتغيرت قاعدته ولكان لها وجهٌ آخر. والمؤلم من هؤلاء ان يَصُبوا غشهم على المرأة لاناصر لها، وعلى المؤتمن الذي لايسعه وقته ان يراقبهم، وما نستطيع الاستقصاء فلكل صنعة ولكل تجارة ولكل عمل غش يبلغ احياناً الى حد الاضرار البليغ بذوي الحاجات، وماينبغي ان ننسى غش المعلم الذي يتقاضى أجره على التعليم ثم لايرعى حرمة مهنته، فيضيع الوقت عبثاً، أو يملأ رؤوس من يستمعون اليه بالجهل، أو الناقص من العلم، أو بمايضرهم في دينهم أو قوميتهم أووطنيتهم، ولاينبغي ان ننسى غش الموظف ايضاً الذي يجعل من الوظيفة مكاناً للقاء الاخوان واللهو معهم، وشرب القهوة وقراءة الصحف، وذوو الحاجات وقوف ببابه يسألونه العطف والتنازل لبحث حاجاتهم وإنفاذها، خصوصاً الضعفاء ومن لاناصر لهم. فليخش الله المعلمون والموظفون والبائعون والعاملون والصانعون، وليحذروا بطشه، وليعلموا أن قرشاً يأخذه أحدهم بالغش سيكون عليه ناراً موقدة، لايخفف من أوارها هذه

المتعة اليسيرة في الدنيا إن كانت ، وهيهات أن تكون . وما جمع الله على أحد من النقمة والكراهية ما جمعه على الغشاشين الذين لا تستريح الملائكة من كتابة سيآتهم ، ولا تفتر لعنات المغشوشين ودعواتهم تنصب عليهم ، وليعتبر الناس بمصير الغشاش ، فان كل من تصيبه مصيبة وان كان عاصياً يجد له راثياً ومعيناً إلا من عُرف بغشه ، فان الناس مجمعون على أن ينظروا اليه نظرة الشامت ، نظرة مملوءة بالتشفي واللذة ، لما نالهم من إيذائه . وما من شك ان من الواجبات الكبرى على المسؤلين ، أن يكافحوا الغش ويضربوا على أيدى الغشاشين ويراقبوهم بموظفين أمينين سلموا من هذا الداء الوبيل ، فان من لم ينفعه التذكير بالله وخشية حسابه ، رده السلطان عن غشه بزجره وعقابه .

من هنا كانت تشرق شمس الاسلام (١)

ان من أعظم مارحم به الله الانسانية ، أن بعث لها رسلاً يحملون اليها رسالة الهدى والنور ، ويقودونها الى البر والمعروف ، ويعملون على تهذيب غرائزها ، والحد من شرورها . هذه رسالة الديانات إلى الأمم ، ماتقصد الا الى الحق والخير ، ولا تسعى الا إلى الفضيلة والمروءة ، ولا تعنى الا بتزكية النفس والسمو بالروح ، وما العالم اليوم بحاجة الى الاستزادة من وسائل الترفيه ، ولكنه في أمس الحاجة الى ما يحقق له السعادة والطمأنينة والهناء ، وما يمكن لمبدأ بشري ، مهما يعظم مفكروه أن يحقق هذه الغاية تحقيقاً مجدياً .

والاسلام الذي قد شرعه الله رحمة للعالمين ، جعل فيه سبحانه من الحيوية ، والقوى الكامنة ما أصبح فيها دين الخلود ، ومعجزة الحياة ،

---

(١) القيت في مسجد يلبغا ونقلتها الاذاعة السورية

وإن نعجب لشيء فلنعجب لهذه المرونة الصادقة في الاسلام ، لا المرونة المنافقة ، فلقد طوى في تاريخه الذي امتد أربعة عشر قرناً ، أمماً مختلفة أشد الاختلاف ، متباينة أوسع التباين ، فمن الشعوب المختلفة التي انضوت تحت رايته : العرب والترك والعجم والبربر والافرنج والصقالبة والتتار والافريقيون وغيرهم ، منها أمم بدائية ، ومنها أمم بلغت ذلك الزمن الحد الاعلى في الملك والحضارة .

نقول هذه الأمم المختلفة والمتباينة التي طواها تاريخ الاسلام ، قد مدها الاسلام لا بالحاجة الروحية فقط ؛ بل كان لها تشريعاً ينظم من حياتها الفردية والاجتماعية مادق وماجل ، وليس التشريع ساذجاً عادياً ، ولكنه عميق رائع قد تحرى الحق لوجه الحق . فللاسلام في هذا قصب السبق مجاوزاً حدود الزمن والمكان والاجيال ، فقد جمع المصلحة للانسانية من أطرافها كلها ، واحتاط لمشاكلها العامة والخاصة ، بنظم إيجابية عملية ، خالية من التعقيد ، بعيدة عن الضر والاذى ، محببة الى النفوس ؛ تخاطب في الانسان عقله وروحه ووجدانه . ووضع المثل العليا لمختلف ملكاتها ومواهبها ، ولم يكتف بالمعالجة القانونية الظاهرة بل عالج منها دخلتها معالجة روحية ، فالمرء حين يبتعد عما نُهي عنه يبتعد

لانه يسخط الله ولا يرضي ضميره ، وإذا أقبل على خير يقبل عليه إيثاراً لرضاء الله ،واستجابة لما يعتلج في نفسه من حب الخير الذي روض نفسه عليه .

أيها المسلمون ! ما كان الظن أن نسعى في أن نبين للمسلمين أنفسهم قيمة دينهم ، بل ما كان ينبغي أن نسوق هذا الحديث إلا إلى الغرباء عنه مبشرين ومنذرين ، ولكن موجة الشك التي تجتاح نفوس بعض شبابنا والتي غزاهم بها الجهل الأجنبي والملحدون ، هذه الموجة التي دعتنا لأن نقول شيئاً ضئيلاً عن ديننا ، لا لنعرف معرفاً ، بل لنذكر ماوسعنا التذكير ،ولو ان الأمم كلها صبأت عن أديانها وألحدت فيها، لما كان ينبغي أن يزيدنا ذلك إلا إيماناً ويقينا ، ذلك أن ديننا كان لناعامل تقدم لاعامل تأخر . فقد اتسق مع منطق الحياة اتساقاً منقطع النظير.

أيها العرب ! وما أدري من أنادي بقولي أيها العرب ، إن الذين يريدون أن يكونوا عرباً غير مسلمين أو غير معترفين بالفضل الاكبر للاسلام على العرب ، فاولئك لاعرب ولا مسلمون ، إن العروبة لتنطوي على نفسها خجلاً من أن تنسب إلى غير من أوجدها ، إن العروبة لتأبى بشمم أن ينتسب اليها من يريدون سلخها عن أبيها وأمها ، إن

العروبة ليست بترنيمة ، إنها لولا الاسلام لما أمكن أن يكون في الوجود ما يسمى أمة عربية ، فالاسلام بروحه رفع العصبية القبلية التي كانت تسيطر على العربي، واستبدل بها وحدة عربية شاملة في الجزيرة وما جاورها، والاسلام بقرآنه ، أوجد لها وحدة في اللغة ، لولاها لكان لكل قبيلة لغتها ، كما كان لها نهجها ونظامها ، والاسلام بروعة تعاليمه قدح زناد العبقرية العربيه ، حتى بدت للناس بأمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

أيها العرب إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، وان صحابته الكرام ، وان دولة الامويين ، وان منطق التاريخ الاسلامي ، كل اولئك كان يرى ان العروبة في كل العصور ، ضمان لحفظ الرسالة الاسلامية ، والعمل على بثها، ويرى أنه إذا تنكر للاسلام أتباعه لاسمح الله ، فان العرب أولي العهد والحفاظ ، يكفكفون من أطرافه ويؤونه فيما بينهم معززاً مكرماً ، لايجحدون فضله ، ولا ينسون صنيعه ، وأما من يتنكر له ، فليس حقاً بعربي ، بل هو دعي ، فالعربي لاينسى صنيعة قدمت اليه ، ولا يداً لأحد عليه ، وليس يجوز أن يفهم بعض الناس العروبة والاسلام على نمط مايفهمه العرب من القومية والدين ، فالدين

عندهم غريب عنهم مناف لطبائعهم ، أما العروبة والاسلام فهما صنوان أرضهما واحدة وطبيعتها واحدة ولغتهما واحدة ،فحيثما وجدت العروبة فثم الاسلام ، وحيثما وجد الاسلام فثم العروبة .

أيها السوريون ، من هنا ، من دمشق عاصمتكم اليوم وعاصمة الامويين من قبلكم ، كانت تشرق على يد العرب الأمويين شمس الاسلام مشعة بهداه ونوره وعدالته . نعم من هنا ، من دمشق، حمل العرب في فتوحاتهم الى الهند والفرس وما جاورهما شرقاً ، والى افريقيا وأوربا وما جاورهما غرباً . حملوا لهؤلاء جميعاً رسالة الاسلام ، رسالة محمد النبي العربي القرشي (ﷺ) . إن دمشق هذه قد كان لها الفضل الكبير في تثبيت هذه الدعوة الكريمة في أقطار الدنيا ، هل سمعتم أيها السوريون بتلك الفتوحات الاسلامية الهائلة التي تلت فتوحات الخلفاء الراشدين ، والتي لم يعهد من بعدها فتح . إنها فتوحات الأمويين ، فتوحات اسلامية واسعة كانت تهيئها وتعد جيوشها وتدبر أمورها دمشق هذه .

لقد كانت دمشق حيناً من الدهر ، وقدة الحياة الجديدة ، وشعلة الدين الجديد ، والعالم الاسلامي من ورائها يسير في ركابها ، ويستنير

بنورها . كل هذا وما يشك أحد بعصبية الأمويين لعروبتهم وبعد افليس من العجب أن تتهم بلادنا بلاد الاسلام والعروبة بانها بدأت تتنكر للاسلام الذي حرسها وحرسته. أقول تتهم فضلا عن أن يفكر بعض أبنائها في ذلك . فما بالنا إذا كان هناك كتل تعمل في سبيل هذا التنكر وتحض عليه، بأي شيء يعتذر بيت العروبة والاسلام إذا هو بدأ يكفر بالعروبة والاسلام . أرأيتم أيها الناس لو قيل : ألف الملحدون المساجد، وألف العباد بيوت الخلاعة ، واستأنث الرجل، واسترجلت المرأة وصار الشرق غرباً ، وصار الغرب شرقاً، وانقلبت الفضيلة رذيلة، والرذيلة فضيلة، أفما كان يدهشكم ذلك ويستثير استغرابكم وتعجبكم ؟ مثل ذلك وأفدح خطباً أن يقال : إن في سوريا العربية المسلمة من يتنكر للاسلام ويكيد للمسلمين . قال تعالى : « كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات، والله لا يهدي القوم الظالمين ، اولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس اجمعين، خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم .

ليلة سمر في القرن الرابع (١)

قالت الأم ، وقد راعها من فتاتها أن تسرف في القراءة ، وتغلو في التعلق بالكتاب : بعض هذا يا بنتاه ! حسبك اليوم ماقرأت ، فان أشد ما أخشى عليك أن ينال منك ماتنفقينه من جهد في هذه السبيل ، فيذوي جسمك ، حتى لايقوى على حمل هذا الروح الذي مابرحت تتعهدين نماءه وقوته ، وإني لأحاذر أن يأتي عليك حين يضطرنا أن نجنبك الكتاب ، فخير لك أن تعدلي في قسم هذه الحيوية الفائرة على سني حياتك كلها ، تأخذين من يومك لغدك .

هلمي الآن ! فأصيبي شيئاً من الطعام ثم أصاحي من شأنك ، فقد طلبت إلي (تربك) أن تروحي اليها في الطفل فعندها اليوم من أخدانها ، من هن من ليلها ومن سمرها .

قالت الأم ذلك بحدب ظاهر ، وحنو شديد ، وفتاتها تستمع الى قولها بكثير من الدل والوداعة والمرح ، وتنظر اليها بعينين وطفاوين

---

(١) نشرت في مجلة المرأة سنة ١٩٤٧

براقتين ، تقذفان من حدة الذكاء وقوة المضاء وسحر الحلاوة مايفرض عليك الاستسلام ، ويزين لك نوعاً من الغيبة تستعين به على تخفيف أثر هذه الروعة في نفسك ، روعة الجمال الذي يشعشع الذكاء من حوله حتى يبديه قوة تطغى على النفس والحس .

واستجابت سعدى الى أمها ، فطرحت الكتاب من يدها، وتمطت قليلاً ، تريح ما أرهقت من أعصابها ، ثم نهضت بخفة ريم نافر تسعى الى ماتريده لهاأمها مما عسى أن يكون متعة ونعيما . بعد أن فرغت من الأخذ بأسباب زينة يسيرة لا كلفة بها، شأن المدلات اللائي يعتمدن في نفوذهن لاعلى التطرية ، بل على ما حبتهن به الطبيعة من جاذبية وحسن غير مجلوب .

واقبلت على أمها فاستأذنت للانصراف بقبلة رسمتها على وجهها ، وشيعتها أمها بنظرات مملوءة ولها واشفاقاً .وقد كان يحميها من النظرة الغادرة ، إشعاع من عزة المعرفة وشرف العنصر ، وكبرياء عقدة الصون والعفة والنأي عن المأثم .

كان لها أب من سراة البصرة وأثريائها ، في مطلع القرن الرابع للهجرة لم ينجب غيرها ، وغير أخت لها كانت دون التمييز حين انتقل الى رحمة الله . فاستأثرت ببر أبيها وعطفه ، وعاشت زمنه في ظلال من

النعيم ، وذاقت الرفه ألوانا ، وقد عُني هو كثيراً بتهذيبها وتثقيفها ، وجمع لها من الكتب ما كان يروقها ، بعد أن ترك لها اختيار أن تسلك من العلم أية طريق شاءت ، فحذقت الفلسفة ، وبرعت في الأدب ، وروت الشعر ، ونظرت في التاريخ وأيام الناس ، وكانت لا تفتأ تغشى مقامات العلماء وحلقاتهم من أولى هذا الشأن ، في المساجد والاندية والبيوت تفيد منهم وتناظرهم ، وتغوص معهم في أعماق البحث والدرس.

وفوق كل ذلك كانت عفة اللسان ، دمثة الخلق ، رضية النفس ، تألف وتؤلف ، لا تنزع إلا الى أشراف العلماء وذوي المروءات فيهم ؛ وتعزف عن كل زائغ القلب ، هزيل العرض ، مريض النفس والخلق وليكن من أعلم الناس وأنبههم ذكراً ، لذلك كله كانت في الذروة من اعجاب الناس وتقديرهم واحترامهم ، حتى ما يجرؤ أحد أن يمسها بسوء ، او ينال منها بكلمة مؤذية .

ولكن أمراً واحداً كان الناس يهتمون في التساؤل عنه ، ويودون لو عرفوا له أسبابه وموجباته ، وهو هذا النوع من سوء الرأي يبادلها إياه بعض رجال الدين ، كانوا يسمونها المغامرة المستهترة ، وكانت تسميهم القصاص تارة والواعظين تارة أخرى ، وما كان يدري احد

سبباً لهذا اللمز بينهما ، وعهدهم بها أنها تكبر عن محامقة الناس ، وأنها من القدرة بحيث لا تدفع الشر بالشر ، بل تغضى إغضاءة الكريم إذا قدر .

قالت عائشة بنت عبد الله : وكنت إحدى السامرات في دار عُلية حينما دعت سعدى ، وهكذا كنا ندعوها باسمها ، إرضاء لرغبتها ، لما كانت تجهر به من أن في الألقاب سمة نقص وإن كان في ظاهرها الاكبار ، وكان يعجبها في ذلك قول الجاحظ :

« ماتزيد متزيد قط إلا لنقص يجده في نفسه » ولقد كنا نتكلف أن نكون معها كما تريد ، لدات متساويات لا ننكمش عن مجاراتها في حديث ولا تعليق ولا نكتة ، وكان مما تتنكر له استسلامنا لآرائها ويروقها أن تشعر بحيوية التحادث وحرارته ، وان يكون معها أكفاؤها لا أطفالها .

وجلسنا اليها جلسة ليست من الدنيا إلا في الزمان والمكان ، وما أرى إحدانا تأسف على شيء فاتها من أمر الدنيا مادامت تظفر بمثل هذه الجلسة في الحين بعد الحين .

« وسألت سعدى ربة المثوى عن موعد حضور عُريب صديقتها

وعما اذا كانت ستحضر معها جاريتها المغنية بدعة ؟

فأجابت : بعد قليل ستحضر عُريب وما أدري أنستطيع أن تأتي معها ببدعة أم لا فقد أعتقتها ، وخرجت عن متناول يمينها .

قالت سعدي : وكيف ذلك ؟ وأنا أعلم أن إسحق بن ايوب بذل لمولاتها في ثمنها مائة الف دينار ، وللسفير بينهما عشرين الف دينار ، فأبت عليه ذلك .

قالت سعدى : كل ذلك قد كان ، ولكنه لم يمض يومان حتى جعلت عُريب تصادي نفسها عن ذلك ، وترى في هذا المال الوفير مايغري ، ولما أخبرت بدعة بالخبر آثرت البقاء عندها فحفظت لها هذا الوفاء ، ورأت أن تكافئها عليه بالعتق فأعتقتها [1] .

وطرق الباب ، ودخلت عُريب ومن ورائها بدعة . ففرحن جميعا وبرقت وجوههن ، وما استقر بهن المجلس حتى بادرت سعدى تهنيء بدعة وتبارك لها حريتها ، وبعد أن ملأت لها المكان دعابة حلوة سألتها من غنائها .

ومن أحب الأشياء اليها أن تأمرها سعدى فتطيع ، تحس بذلك

---

(١) قصة عريب وبدعة عن المنتظم لابن الجوزي في أول حوادث المئة الرابعة

أنها شيء في نفسها ، ثم غنت ، وجهدت أن تصيب بغنائها مواقع الطرب من فؤادها وقد تم لها ذلك ، فطربت سعدى حتى ثملت .

قالت عائشة : وتوقفت بدعة عن الغناء . استجابة لما يعتلج في صدورنا من الرغبة في الاستمتاع بحديث سعدى .

وبدرت إحدانا تقطع علينا سكون الطرب والانتظار سائلة سعدى ، من هو ياسيدي قائل هذه الأبيات التي أولها

ألا ياحمام الأيك إلفك حاضر وغصنك ميادٌ ففيم تنوح ؟

فرفعت سعدى رأسها ومايزال في عينيها ذبول النشوة ، وفي وجهها نضرة النعيم . ونظرة إلى السائلة وقالت مازحة مداعبة تخاطبهن جميعاً :

ما كنت أحسب أنكن ستجعلنني من بدعة في موضع من التندر والمفاكهة حين يتبين لكن في المقابلة ، الشيء وضده ، وإلا فما خطبكن إذ تهبطن فتسمعن صوتي في التحدث ، بعد أن ذهب بكن ذلك الصوت الملائكي كل مذهب ؟ أفما كان يستقيم لكنّ هذا الربح إلا على خسارتي أنا ؟

فأجبنها جميعاً والبسمة تخطر في ثغورهن : طبت سعدى .

وقالت بدعة : أخشى إن صحت المقابلة أن يكون لك الربح على خسارتي أنا .

وقالت سعدى : إذا لم يكن بد من حديثي فالله حسيبكن ، ثم انطلقت بهدوء ورقة وصفاء جرس ، تحملنا على جناحها الرفيق من زهرة الى زهره حتى ارتفعت بنا في الحديث ، فتكلمت عن حقيقة الأدب وقابلتها بحقيقة الفلسفة ، فما قالته :

إن الادب ليستوحي التعبير عن جمال الطبيعة بطريق الالهام ، وإن الفلسفة لتستمد البحث عن حقيقة الوجود بطريق المنطق ، فهما بهذا شيئان مختلفان ، فالأدب شيء على هامش الحقيقة لا يمسها فتحرقه ، والفلسفة إن فاتتها الحقيقة فلن يفوتها أن تحاول بمنطقها اخضاعها ، وإن كانت الحقيقة ماضية تعمل عملها ، ساخرة لا تبالي أوقع الناس عليها أم وقعت على الناس .

قالت عائشة : وهي تسترسل في قصص ما استقر في ذهنها من حديث سعدى : لاجرم أنها كانت رحلة فكرية ممتعة وما زالت تعلو بنا النجاد ، وتهبط الوهاد ، حتى انتهت بنا الى حظيرة الدين والتدين ، وكنا نقف بهذه الحظيرة وقلوبنا واجفة مضطربة ، نخشى أن تمس مقدساتنا ، وهي من الجرأة بحيث لا تبالي أن تقول ما نعتقد بكلمة جارفة وهنا قالت واشتدت قليلا في صوتها : ليس هناك ما يعصمنا من

الحيرة والتردد والاضطراب ، ويُمسكنا أن نزل ، ويجعلنا نُشعر بالحقيقة مؤمنين بها ، سعيدين بفهمها ، كل على مقدار ذكائه وعقله ، غير التدين .

وتوقفت قليلاً عن الحديث ، كأنها تريد أن تنظر ماأحدثت فينا هذه المفاجئة من عجب واستغراب وتساؤل ومضت تقول .

لتذهب بكن الظنون حيث تشاء فاني ما أقول إلا ماأعتقد ، وما أعتقد إلا ما أقنع به ، وما أقنع إلا بعد شك وتفكير ومقابلة وتجربة .

ولا تحسبنَّ أني أقصد من التدين إلى مدلوله الذي شاع في هذا الزمن عند القصاص وأمثالهم ، فهؤلاء لم يأخذوا من الدين إلا أوهامه الدخيلة التي غزانا بها ملل جاورتنا ، ونحل من الهند والفرس وغُبَّرات من وثنيات قديمات ، وما من شيء تلبس بما لم يعط كهذه الاوهام التي تقمصت ثوباً من الفلسفة تارة ومن الدين تارة أخرى ، وليست منهما في قليل ولا كثير ، على أنه لاتنجم هذه الاوهام في أمة إلا في حال إدبارها وضعفها ، وما يفزع اليها إلا اولئك الذين يفرون من مواجهة الواقع ليلتمسوا فيها نوعاً من المرقد الروحي ، يسكنون اليه ويرضون به ويقنعون ، أقول لاأقصد الى هذا النوع من التدين ، انما

اريد من الدين القوي بوضوحه ، الصحيح بجوهره، الذي يساير منطق الحياة ، وينظر الى الأشياء كما تريد طبيعة الاشياء .

وهكذا أنزل ديننا ، وفهمه الصدر الاول من الصحابة والتابعين وفهمه أئمة كثيرون من الفقهاء والمحدثين وزمننا مايزال حافلاً بأمثالهم في الأقطار الاسلامية كلها ، ولا يؤسفني إلا أني قليلة الاختلاف اليهم ، وأرجو أن يتاح لي أن ألزمهم وأروي عنهم وألتف منهم علومهم .

قالت عائشة . مارأينا قط كاليوم كنا نحدق النظر اليها كأننا نريد أن نستوثق من أن هذه المتحدثة حقاً هي سعدى بعينها ، فما سمعنا قبل منها حديثاً يشبهه ، وما ندري أفاجأها التدين في الأيام القريبة ، أم هو نتاج لبحث طويل لم تشأ أن تظهرنا عليه إلا بعد أن نضج واستكمل ؟

وسألتها إحدانا متندرة في ظاهرها متأثرة في نفسها . متى سنجلس اليك ياسعدى نفيد منك الفقه والحديث كما أفدنا منك الأدب والشعر والفلسفة ؟ ومتى ستصلين أنسابنا العلمية بأولئك الذين نوهت بهم وأثنيت عليهم ؟

فقالت : هذا أمر نسأل الله أن يقدره لنا ويصلحنا به ، وكم أحب أن يكون من بالكن أنا بتدينا لاندع شيئاً مما كنا فيه ، ففي الدين

متسع لذلك كله ولن تنكروا في غد من أمري شيئاً .

هذه عائشة زوج الرسول العظيم التي قال عنها : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ، كانت أبلغ نساء عصرها وأعلمهن ، بل أبلغ من أكثر الرجال وأعلم ؛ وكانت الى ذلك أروى لشعر ، واحفظ لتاريخ ، وأبصر بطب وفلك ، واجمل منطقاً واحسن حديثاً .

تقول عائشة بنت عبد الله : وقلت أنا ، وقد كان ينفض المجلس ، بشراكن هذه أول الرواية من استاذتكن وصديقتكن سعدى ، ثم انتثر عقدنا وقد تركت في عقولنا ونفوسنا وأرواحنا ما يشغلنا زمناً طويلاً .

قالت عائشة : واقبلت سعدى بعد أيام على علماء الحديث، تروي عنهم ويذكرونها الرواة جرحاً وتعديلاً ، ومامضت أشهر حتى جعلت لنا نحن الصديقات ساعة في الاسبوع لجميعنا ، وثلاث ساعات لبعضنا وكنت فيهن ، نستمع اليها ماروت ، وما مضت سنوات قليلة حتى اشتهرت عدالتها في طبقة المحدثين والفقهاء فكانوا يؤمونها من الأقطار ليرووا عنها ماندّ عنهم من حديث صحيح ، وليحدثوا تلاميذهم قائلين: حدثتنا سعدى قالت حدثنا ... عن رسول الله (ﷺ) .

شهادة صابئي بثلاثة أعلام (١)

أعظم ما تمتاز به الرجولة : العدل بالحكم في الغضب والرضا ، والقدرة على التحرر الفكري من منازع الهوى والعاطفة ، والتجرد الصحيح عن مؤثرات الوراثة والبيئة والمجموع ، فاذا استحكمت في في الانسان هذه الميزات ، وعملت فيها عملها الحق ، أسبغت عليه فضيلة الاتزان ، وسارت به في طريق الحكمة ، ثم أثبتته في مصاف الكبار من الحكماء ، الذين لا يستهويهم زخرف القول ، ولا تستفزهم مثيرات الشعور ، والذين يسيرون متئدي الخطى ، يستوحون الفكرة من ألبابهم البريئة العميقة التي لم يغشها ميسم التأثر ، ولم تنخدع بمظاهر الشعور العام .

فمن مثل هذه النفوس ، تجني الأمة الحياة المكينة ، وبمقدار وجودها تزان الحرية العقلية في الكثرة والقلة . والحق الاخير في حياة

---

(١) نشرت في مجلة التمدن سنة ١٣٥٨ هـ

امريء موزعة تتقاذفها التيارات الخارجية من كل لون وكل صنف، تقيمه مرغما ولا يدري ، وتقعده مرغوماً ولا يدري ، وتأخذ عليه استقلاله الذاتي فيقلد في التفكير وهو لا يدري أيضاً ، وهذا نقص في التهذيب النفسي والعقلي والعلمي ، وقد يكون نقصاً في الاستعداد أيضاً . ومهما يكن من شيء فان نستطيع أن نتصور من هذا القبيل إلا القليل النادر من عظماء وفلاسفة وحكماء ، ولو يسر للانسانية عدد وفير من هؤلاء لاستراحت من أوبئة سياسية واجتماعية وخلقية تسف بها كل حين دركات ودركات .

ومادام الانسان لا يفكر إلا في جو الاقليمية أو العنصرية أو المذهبية ، فلا قدرة له على التجرد وصراحة الرأي ، ولا سبيل له إلى معرفة الحق كما يجب أن يكون ، وانما يلتبس عليه الامر ، فيرى الخير شراً والشر خيراً ، والحق باطلاً والباطل حقاً . ولكم اختلفت مدلولات الاسماء بين الناس ، فكان هذا التفاوت العجيب ، الذي يدل بأقل مظاهره على العبودية المستغرقة للطقوس الحزبية والمذهبية ، التي تخمد الفكرة الحكيمة ، وتبطل عمل العقل ، فلا تبقى عندئذ إلا سيطرة الهوى وتحكم الميول . هذا ، وما حدانا إلى هذا التمهيد الصغير إلا شخصية هذا

الصابئي الكبير : فهو ثابت بن قره الحكيم الطبيب الفيلسوف المعدود من أعيان عصره في الفضائل ، والذي أجلى لنا من قوته الحكيمة والفلسفية ، أكبر مثال لعظيم عاش لخدمة الرأي ، والبحث عن الحقيقة ، والنزوع إلى انصاف الناس ، فقد تحدث وهو الصابئي ، عن ثلاثة أعلام من المسلمين ، فقال كلمته الصريحة البليغة التي تمثل شهادة العظيم بالعظيم ، والتي تحفل بأقوى الخصائص التي تعتبر مفخرة الامم في السابق واللاحق : جلالة الحكم ، واشراق الحكمة ، وسعة العلم ، وهاهي بنصها ، نثبتها لطرافتها ، وجمال صياغتها ، وعمقها في الترجمة .

حدث أبو سعيد السيرافي : وهمك من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك من صدوق . قال : حدثنا جماعة من الصابئين الكتاب : أن ثابت بن قره قال ماأحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فانه :

عقم النساء فلا يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

فقيل له : احص لنا هؤلاء الثلاثة . قال : أولهم عمر بن الخطاب في سياسته ، ويقظته وحذره ، وتحفظه ودينه ويقينه ، وجزالته وبزالته ، وصرامته وشهامته ، وقيامه في صغير أمره وكبيره بنفسه مع قريحة

صائبة وعقل وافر ، ولسان عضب ،وقلب شديد ، وطوية مأمونة ، وعزيمة مأمومة ،وصدر منشرح،وبالٍ منفسح ،وبديهة نضوح،وروية تفوح،وسر طاهر،وتوفيق حاضر ، ورأي مصيب وأمر عجيب،وشأن غريب . دعم الدين وشيد بنيانه ، واحكم أساسه ورفع أركانه ، وأوضح حجته وأنار برهانه . ملك في زي مسكين ، ماجنح في أمرٍ إلى ونى،ولا غض طرفه على خنا، ظهارته كالبطانة ، وبطانته كالظهارة. جرح وأسا ، ولان وقسا ؛ ومنع وأعطى ، واستخذى وسطا ؛ كل ذلك في الله ولله . لقد كان من نوادر الرجال .

قال .والثانى الحسن ابن أبي الحسن البصري .فلقد كان من دراري النجوم علماً وتقوى وزهداً وورعاً وعفة ورقة وتألهاً وتنزهاً وفقهاً ومعرفة وفصاحة ونصاحة ، مواعظه تصل إلى القلوب ، وألفاظه تلتبس بالعقول ، وما أعرف له ثانياً لاقريباً ولا مدانياً ، كان منظره وفق مخبره ، وعلانيته في وزن سريرته ، عاش سبعين سنة لم يُعرف بمقالة شنعاء ، ولم يُزَنّ بريبة ولا فحشاء ، سليم الدين نقي الأديم ، محروس الحريم ، يجمع بجمعه ضروب الناس وأصناف اللباس لما يوسعهم من بيانه ، ويُفيض عليهم بافتنانه ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا

يلقن منه التأويل ،وهذا يسمع الحلال والحرام ، وهذا يتبع في كلامه العربية ، وهذا يجرد له المقاله ؛ وهذا يحاكي الفتيا وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الموعظة وهو جميع هذا كالبحر العجاج تدفقاً، وكالسراج الوهاج تألقاً ، ولا تنس مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الأمراء وأشباه الأمراء ، بالكلام الفصل ، واللفظ الجزل، والصدر الرحب، والوجه الصلب ، واللسان العضب ، كالحجاج وفلان وفلان مع شارة الدين وبهجة العلم ورحمة التقى ، لاتثنيه لائمة في الله ولا تذهله رائحة عن الله ، يجلس تحت كرسيه قتادة صاحب التفسير، وعمرو وواصل صاحبا الكلام ، وابن أبي اسحاق صاحب النحو ، وفرقد السبخي صاحب الدقائق ، وأشباه هؤلاء ونظراؤهم ، فمن ذا مثله ومن يجري مجراه ؟

والثالث ابو عثمان الجاحظ خطيب المسلمين وشيخ المتكلمين ، ومدرة المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان في البلاغة ، وإن ناظر ضارع النظام في الجدل ،وإن جد خرج مسك عامر ابن عبد قيس ،وإن هزل زاد على مزبد . حبيب القلوب ومزاج الارواح وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ورسائله أفنان

مثمرة ،مانازعه منازع إلا رشاه آنفاً ،ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والامراء تصافيه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ،والخاصة تسلم له،والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم،وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم،وبين الذكاء والفهم. طال عمره وفشت حكمته وظهرت خلته ووطيء الرجال عقبه،وتهادوا أدبه واعتزوا بالانتساب اليه ونجحوا بالاقتداء به ،لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب .

هذا حديث الصابئي ثابت بن قره عن هؤلاء الثلاثة العظماء ، ولقد أجادا الاختيار فاصطفى مثالاً من الذين هذبهم الدين ، وصقلتهم التجارب ، وراضتهم سياسة الناس ، مع نفاذ البصيرة ودقة الفهم، وحصانة العقل وسمو الرجوله ، ولو كشفت حجب الجهالة والعصبية عن أعداء المسلمين ، ودرسوا عظماءهم لفهموا بالحق المثل الأعلى ، ولعلموا أن الملة الاسلامية هي التي حفلت بالكثرة من العظماء والحكماء والعلماء ، وعسى أن يأتي اليوم الذي يكثر فيه المنصفون ، فلا يبخسوا الناس أشياءهم وينزلوهم منازلهم .

تكويننا الاجتماعي وكيف يجب ان يكون (١)

يروعنا من التاريخ ذلك الحادث الجلل ، الذي أبرز صفحة من الوحشية الأثيمة ، وقد تزملها التتر في ارتكابهم أفظع جريمة عرفها الانسان ، ذلك الحادث الذي قضى على حاضرة الدنيا وحاضرة المسلمين بغداد ، فقضى على كل ما فيها ، من علم ونور وحضارة ، وزهو وعظمة ونضارة ، ثم خلف من ورائها حسرات لا تزال تنوء منها أمم إثر أمم ، ولا تزال تمضها جراحها وغشيت سحابة منها قلب كل مسلم وكل عربي ، فضاق بها مذهب التفكير ، وضل الرشد نعم لقد فجأتهم بهذا الحادث داهية دهماء ، فقلقلت أرضهم ، وزلزلت أركانهم ، وحطمت كيانهم ، ثم غيبتهم في مطاوي الانحلال ، وبوأتهم من ضعفهم اسوأ المصير ، فاطمأنوا للمسكنة ، وسكتوا عن الحفيظة ، ورضوا عن العيش ما داموا يأكلون ويشربون ، حتى أذا تفتح عليهم بصيص من نور ، وبسمة من

---

(١) القيت في حفل عظيم اقامه معهد العلوم الشرعية ١٣٥٧ هـ ونشرت في مجلة التمدن الاسلامي .

أمل ، في إشراق العهد العثماني المسلم ، دهمتهم منه العنصرية الغاشمة ، التي تقضي على ما بقي من عزة النفوس ومن شممها ، وإن علت فيه كلمة الله وأركس منها الذين كفروا ، ورفعت أعلام الدين في الأرجاء كلها ؛ أجل لقد كان ذلك ، ولكن الشعوب التي دانت لسطوة هذه الدولة لم تجد في قرار هذه السلطة شيئاً من التفتح الفكري الحر ، ولم تجد لها خلاصاً من الضغط الفاضح المر ، وما كان هذا المبدأ يكفل ثبات الدولة واستمرارها ، ولا هو مما يقره الدين ويسعى اليه ، فقد كان النبي (ﷺ) وهو المشرع الاعظم عنده عصبة أمم اسلامية يأتيه أمير القوم فيسلم ويعود ، وقد قلده إمارة قومه ، حتى لا يشعره ولا يشعر قومه بنوع من خروجهم عما ألفوه ، وعما ارتاحوا اليه ، وسيدنا عمر كان يقول : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . وقد كان من الواجب على دولة تتسلم زمام الحكم بعد تلك الفترة البربريه ، أن تكفكف ما استطاعت من جورها وصرامها ، وتطامن من نعرتها ، وترحب صدرها لقوم صوحتهم نار الهول ، لتؤمن خيفتهم ، وتخفض جأشهم ، وتذهب عنهم الروع لعلهم يستجمعون بذلك ويؤوب اليهم رشدهم ؛ فيشعروا وينهضوا ويكونوا بالحق قوة للدولة لا يستهان بها ، ولكن مع الأسف كان

جهد الدولة متجها لتغذية الملك التركي وامتداد سلطانه . وهـذا بعينه هو الذي كلفنا الشيء العظيم ، كلفنا أن ننفق من المعنويات مالو ادخرناه لأصبحنا في مصاف الأمم الحية الكبرى ، فيألق نجمنا ، ويزدهر مجدنا . وننعم بحياة مملوءة صفاء وخيراً ونعيما ولكن الدنيا دول وسنة الله في الكون ماضية ، تمحق قوماً لتجيء بآخرين . وهكذا انقضى العهد العثماني ، وكانت الحرب العالمية التي كانت ـ على فداحة خطبها وسطوة مصابها ـ . مفتاحاً ليقظة جديدة ، قد طالما امتد السبات من قبلها ، فقد طفقت النفوس تحس بشيء لم تكن لتجد له في أفئدتها أثراً من قبل ، أصبحت بعد الحرب تصيخ لما يهمس في ضميرها ، وتستشرف لشيء يعلمها أن في الحياة جديداً هو غير العيش ، هو الحياة التي تقلب بها سلفهم بنعمة كانوا فيها فارهين ، هنالك بدأت تتفتح زهرة الآمال السعيدة ، وتهتز القلوب النشيطة ، وتفتر المباسم عن الفاظ الحرية والوطنية والاستقلال ، بعد أن لم يكن لها قبل الحرب ركز بين الناس ، لقد لبثت هذه الداعية تنمو في الأمم الاسلامية كلها في الجزيرة العربية وغيرها ، حتى ارتاحت لها النفوس ، وتأهبت للتحفز ، ونشطت لنهضة ترجوا فيها أن تقطع الشراك الذي ظلت

فيه محجورة حقباً طوالاً لاتلوي على شيء ، ولكنها ويالالأسف بغتت بالاستعمار ، وياله من صدمة تفتك بالاحشاء وتضعف المنة . والويل لرجال بالغوا بالاضرار بناباسم الاستقلال ! فكان لأعمالهم أسوأ الأثر الذي أرهقت البلاد والعباد . ولو قدر لنا أن تكبت هذه النزعة المزعومة ، لكنا بخير وألف خير ، ولنجونا من ألم رزحنا تحته سنين كثيرة،في حين كادت تضيق به الصدور،ويلوح المحجور والقافلة تسير . وإذا كان من مسئول عن هذا كله فهي الأمة،التي كانت تثيرها السلبيات ولو أودت بها . وتستهويها القيادة المتهورة الخرقاء التي تحمل السيف الخشبي لتصدع به القنابل جحيمها .أما وقد حنكتها الحوادث ونبهتها الصدمات ، فليس لصعاليك السياسة عليها من سبيل لاجرم أننا نمني أنفسنا أحسن الأماني ، فنكلف بالنجاح ، ونحلم بحياة مرضية طيبة ، ولكننا لم نبرح بعد في مستوى يحوجنا فيه استعداد غير هذا الذي نحن فيه فانا ـ والحق أقول ـ لانزال نحمل من الشعور الحقيقي بوجوب الانبعاث أقل كثيراً مما ينبغي لنا أن نحمل ، ومقياس النهضات في الامم مقدر بمقياس شعورها نحوها ، ويستحيل على أمة بغلي شعورها ، وتجب قلوبها ثم تجمع اتجاهاتها ،وتوحد آراءها أن

تطمئن بمقام لايواتيها ، أو تغضي عن واقع تكرهه ، ولكنها تندفع اندفاع الأبي ، بعزيمة قوية وبسالة فذة ، ثم تقف بعدها من الحياة على حد الفصلين ، إما أن تعيش أبداً أو تموت أبداً . هذه هي الأمة التي تضطرم قوة وحماسة ، وتشتمل جذوتها فتملأ الدنيا فيحاً وأجيجاً وهذه هي التي كتب لها أن تثبت في الوجود ، تهزأ بالأهوال وتحظم العثرات ، وإن الأمة التي لاتعبأ كثيراً بمصيرها ، ولا تقف من أحرج أدوارها إلا كما تقف من تزجية الفراغ ، لتلك الأمة الجديرة بأن تكتنفها الويلات ، وتجر عليها أقبح ماأخفته الأيام من تراجع وخسراز ، ولكن ليس فيما مضى حرج علينا وقد شط المزار وبعدت الشقة . لاتصلنا بالماضي إلا الذكريات ولا بالحاضر إلا العقبات ، وكنا نبني قوة من ضعف ، ونبعث رجاء من يأس ، ليس علينا أن نبطيء السير مادمنا نسير ، والذي يجب علينا الآن ، وقد فصلت العير وتسابق النفير أن نحث النجائب ونرخي العنان وندفع الخطو ، لئلا يستسر الهادي ويضل الطريق ، فيفجؤنا القدر بأقسى ما لديه ، ولا ينفعنا بعد ذلك الندم ، وقد جف القلم ، فلنتعاقد على وحدة في المبدإ والغاية والرأي ، ولنسر بمجتمعنا على نواميس البيئة والطبيعة والأقليم ، لئلا نصطدم

مع الغرائز فيلتبس علينا الخير والشر، وتركبنا الحيرة التي لا يستقيم معها تقدم أو تأخر. وإذا ساغ للفرد - ولا يسوغ - أن يصطبغ بغير صبغة محيطة وأقليمه، فلن يجوز بوجه أن تجري الجماعات في غير سبيلها الطبيعي الذي ورثته على بيئتها، وإن ظهرت في بعض الأحيان بغير دثارها الملائم لها، والفرد في المجتمع غيره باستقلاله الذاتي، فهو باندماجه تتقيد حريته ويضؤل تفكيره وتذرب فرديته، وإن يكن في ذات الوقت مستأسد الطباع، مستوفز الرغبات، قوي الأثرة والشره. فلنفهم إذن قبل كل شيء أننا شرق وان عناصر وجودنا المعنوية والمادية هي من الشرق، وعناصر الشرق كلها بروحه والهامه وفطرته وصفاء معناه مبثوثة في الشرقي متمكنة فيه، وإن زعم أن في مقدوره أن يتخلص منها، فلئن قامت داعية من دواعي السياسة، أو داعية من دواعي الاصلاح العام، تلجيء الناس في الشرق ان يتأثروا الغرب في نزعاته وغرائزه وأخلاقه وعاداته وأطوار اجتماعه، وكل ما اختص فيه قد زرعته فيه جغرافيته وصقعه، فقد حاولت عبثاً وركبت غرراً، وأضاعت ما يمكن أن يتاح لها من الفرص، لاستثمار الميول والطبائع في استخدام قواها الكامنة التي ترتد عليها، فتشتد مرتها،

ويمنع جانبها وتفلح بالقوة من جانبين : انها قوية وأنها هي منبع قوتها ، ولو أنها التمست قوتها بالتقليد ؛ لمسها الضعف أيضاً من طريقين ، بسط النفوذ المنوي عليها ، وتسجيل النفوذ عليها بالتقليد واسنا نحظر التقليد بما يلقف عادة بوسائل الاكتساب كالعلوم والصناعات والاختراعات ، فكل هذه عوارض يستعان بها على تقويم الحياة ، وإنما نحظر التقليد في المواهب والغرائز والأطوار التي هي جوهريات التكوين ، ولكن مانصنع بدعاة هم في الحقيقة من زعانف المفكرين ؟ فالمخلص العظيم في الأمة من يقودها بأرهف محساتها ، وهي فطرتها التي لايسعها أن تنفصل عنها ، وما تلك الفطر فينا إلا الحياة الروحية أو بالاصح الدينية الاسلامية ، والتي يكون الانخلاع عنها انخلاعاً عن أي تقدم اجتماعي أو سياسي ، ولا تهولن هذه الكلمة أناساً مردوا عليها فهي الحقيقة التي لاريب فيها وإن ضاقوا بها ، ووجدوا في أنفسهم حرجاً منها وما علينا إن حسبوها تقهقراً أو رجعية وقد كانت حقيقة انضاناً نشدانها والسعي وراءها ، ولكن كم يدع الانسان الحق القريب فيطلب به الباطل البعيد ؟

هذه خلاصة مايجب أن يكون عليه مجتمعنا ، وما للنفوس دواء

تستجم به ، ويحفها الرشاد وينقاب إليها الخير كله غير أن ترجع إلى الدين بصفاء روحه ، وصحيح معتقده ، الدين الذي لم يشبه البدعة ، ولم يخفت سره التقليد ، ولنعلم أن الذي استطاع أن يستبدل بابن أبي قحافة وابن الخطاب وابن أبي طالب وابن أبي سفيان (الرجال الجاهلين) ابا بكر وعمر وعليا ومعاوية وعمرو (الرجال العالمين) ، لايعجزه أن يجدد فينا نفوسا تشرع الخير وتخلص من الضر ، ولا يعجزه أن ينقذنا من البؤس ويصطلم مناجر اثيم الحطة والمسكنة ، ثم يسمو بنا إلى الشرف والعزة والمجد ، نعم لايعجزه كل ذلك ، ولكن أين هم كماة الميدان الذين وقفوا للاصلاح نفوسهم ، يحيون ما أمات المبطلون ؟ وأين هم الذين خفوا ليحملوا هذه المهمة بعقيدة وصدق وجدارة وقوة فيقودوا هذه الجماعات الظامئة بالدهاء والاخلاص ؟ وأين هم الذين يستطيعون أن يكونوا أطباء روحيين واجتماعيين فيعالجوا هذا الوباء المنتشر علاج المحنك المرن ، فيستخدموا المواهب ليشيدوا عليها الحياة القوية الرفيعة الممتازة ؟ إن من سوء الحظ أن نفتقد كل هؤلاء ، وأن نجد من نخالهم أهل ذلك ناكبين محجوبين ، غافلين عن الواجب ، الواجب الذي يطلبهم فيفرون منه ، ألا يعلمون أنهم إن أحجموا عن

خوض المعركة ، فقد أساؤوا إلى ملتهم ووطنهم وأمتهم ؟ ألا يعلمون أنهم سيسألون أمام الله فيحاسبهم وبطيل حسابهم ؟

ليس الدين ياسادتي ما تحتقبه الأدمغة فحسب ، إنما الدين الذي تعيه القلوب والمشاعر ، فتشعه على العقول فتخرج منها عظاماً مفكرين ودعاة عاملين ، ينصرون الحياة وينشرون فيها النعمى والسعادة ، وهيهات أن يكون التفكير اللاشعوري وحده سائقاً إلى العمل بصبر وصدق . وإذا كان خير القرون في الاسلام القرن الاول ثم الذي يليه فذلك لأنه يضم نفوساً امتلأت بالايمان ، واستشعرت العقيدة وهل تخرج العقيدة إذا امتزجت بالنفس وامتدت مع الروح إلا مثل أبي بكر وعمر ! ...

فما أشد حاجتنا نحن المسلمين اليوم وقد غبرت علينا أزمان وأجيال ، وأمكن أن يعيد التاريخ نفسه ، أن نهيء علماء عاملين يحملون إلينا الرسالة بقلوبهم قبل ألسنتهم ، وبأرواحهم قبل أجسامهم ، لا يتعلمون العلم ليفاخروا به الاقران ، ويماروا به السفهاء ، ويصرفوا وجوه الناس إليهم ، بل لوجه الله ، ولنصرة الحق ، يشعرون ثم يتعلمون ، ليقووا شعورهم ويدعموا يقينهم ، ثم لينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم بالحكمة

والموعظة الحسنة ، لعل الدين يعود فينتعش في نفوسنا فيصبح قوة وأي قوة ، قوة ثلاثمائة ألف ألف من البشر ، كل واحد منهم بإيمانه أمة تجابه أمة ، بعد ان لم نكن إلا غثاء كغثاء السيل . إن علينا أن نحس بوجوب هذا الايجاد ليكون ، وإذا كان ليقوى ، وإذا قوى ليتشجع ويسير في مهمته ويعمل عمله ، فاذا وجدناه وجدنا كل شيء وإذا فقدناه فقدنا كل شيء وأما بعد فالله تعالى يقول :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم » . ويقول :

« يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »

فها نحن ننشد الحياة ، ونحب الاستقلال ونهزج بالحرية ، فهل

سلكنا الطريق ؟ ليس لنا وربكم إلا أن نهرع ونستجيب لمن يناديا للحياة ، فهو الذي نصر أسلافنا على أعدائهم ، وسينصرنا عليهم ، وعبثاً نفكر في سبيل غير هذا ننجح فيه ، لانه لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، فلنعاضد ديننا ، ولنجمع أمرنا ، ولنشد أزرنا ، لنصبح صفاً واحداً بالايمان والصبر ، وننهض نهضة الليث ، ثم ندعو مجدنا القديم دعوة حق ، قائلين :

هاقد تهيأنا فارجع إلينا نفدك بأرواحنا ودمائنا .

جولة في كتاب [1]

هذه جولة في كتاب ولكن ماذا عسى ان يكون هذا الكتاب ؟ ان الحضارة الاسلامية أغنى حضارة في العالم ، علماً وكثرة كتب ، ووفرة تأليف ، في كل فرع من فروع العلوم ، ولكن ما نحن بسبيله في حديث الجمعة الديني أن يخول في كتاب في الوعظ والارشاد، وليس كل كتب الوعظ والارشاد كتباً تصلح للانتفاع في المعاش والمعاد ، فان منها ما يصرف الانسان عن الاتعاظ ، ويزهده في البر والتقوى ، لما يحويه من كثير من الاحاديث الملفقة والضعيفة، وان منها ما لا يحسن تشخيص الداء ولا وصف الدواء ، يتبعها الغر فيقع في امراض نفسية واجتماعية ودينية افدحَ خطباً وأسوأ مغبة ، اما كتابنا الذي سنجول فيه واسمة جيد الخاطر ، فقد امتاز عنها جميعاً ، امتاز في مؤلفه ، وامتاز في موضوعاته وطريقة تأليفه ، اما مؤلفه فهو الحافظ بن الجوزي ، اكبر

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

عالم ومؤرخ ومحدث في عصره ، واشهر واعظ ، حتى قيل من ترجمته: إنه كان يحضر دروس وعظه نحو من أربعين الفاً ، وحضر دروس وعظه بعض الرحالين المشهورين ، وأظنه بن جبير فقال عنه ما معناه : حضرت دروس عالم كأن قلوب الناس بيده فهو يضحكهم إذا شاء ، ويبكيهم إذا شاء ، واما الكتاب فان مؤلفه لم يتكلف وضعه ولا صياغته ، وإنما سجل فيه خواطره وتجاربه اللاتي مرت بالعجب ان يغلب وانما العجب ان يُغلب في حياته الدينية والعملية ، وأرانا فيه صورة صادقة عن الدين ، كما كان زمن محمد رسول الله (ﷺ) سمحاً كريماً صافياً ، يعالج كل مشكلة من مشاكل الحياة معالجة حاسمة ناجحة ، يعالجها من اساسها بالتشريع والروح والقلب والضمير .

كل هذه الالوان من الارشاد مبثوثة في الكتاب ، وقد جهد المؤلف في كتابه هذا ان ينزع عن جوهر الدين ما تغشاه من الخرافات الكثيرة التي جعلت منه على الايام طقوساً مثل طقوس البوذية والمانوية في شل حركة الانسان وابعاده عن طبائعه وغرائزه ، وعن حياته العملية ، وقد قال المؤلف في كلام له : « فالحذر الحذر من افعال اقوام دققوا فمرقوا عن الاوضاع الدينية ، وظنوا ان كمال الدين بالخروج عن الطباع ،

والمخالفة للاوضاع » . ومن نظرات المؤلف الدقيقة والصائبة ، موعظة على اساس فهمه لحقيقة الانسان ، وانه ميال بطبعه الى نوازع الجسد ، ليبعد بوضعه عن الآخرة ، فقال في ذلك : « جواذب الطبع اي الدنيا كثيرة ثم هي من داخل ، وذكر الآخرة امر خارج عن الطبع ، ثم هو من خارج ، وربما ظن من لا علم له ان جواذب الآخرة اقوى لما يسمع من الوعيد في القرآن ، وليس كذلك لانه مثل الطبع في ميله الى الدنيا كالماء الجاري فانه يطلب الهبوط ، وإنما رفعُه الى فوق يحتاج الى التكلف ، ولهذا أجاب معاون الشرع : بالترغيب والترهيب يقوى جند العقل ، فاما الطبع فجواذبه كثيرة ، وليس العجب ان يغلِبَ وإنما العجب ان يغلَب ومن المتحقق ان المؤلف من اول من سلك السبيل النفسي العميق في إصلاح الانسان وتوجيهه الى الخير ، ومن قرأ الكتاب قراءة إمعان تزود منه بمعلومات نفسية جمة ، تصلح أن تكون نواة لعلم النفس الذي اتجه اليه بعض علماء المسلمين في القديم كالغزالي وابن الجوزي وأمثالهم وفي الكتاب ثلاثمائة وثلاثة وسبعون فصلاً ، ليس لفصل منها عنوان ، مما يدعو الناظر في الكتاب الى ألاّ يدع فصلاً من غير قراءة ، ولكل فصل موضوع خاص ، يعالج فيه المؤلف مشكلة

نفسية أو دينية أو اجتماعية معالجة مرنة عملية ، بعد ان يصف واقعها ويشخص داءها ، ومن العسير ان يمر في ذهن الانسان حادثة فردية أو اجتماعية ، دينية او دنيوية ، ولا يجد لها في الكتاب فصلاً ، فمن فصل يعالج فيه تطهير دخيلة الانسان ، الى فصل يعالج مشكلة الاسرة والزواج والاولاد ، ومن فصل يوضح وجهة نظر الدين في الحياة الدنيا الى فصل يكشف حقائق مستورة قد يظنها البعض انها ليست من الدين وهي منه ، أو يظنها منه والدين منها براء ، وكثيراً ما عمد الى تفسير أشياء وتعليل امور يستغرب المرء اليوم ان تصدر عن عالم كبير مثل ابن الجوزي ، لا لأنها مما يستهجن ، بل لاننا حسبنا في العصور المتأخرة ، ان العالم الشرعي ينبغي ألا يفهم من أمور الحياة إلا الصلاة والصيام والعكوف على المساجد وما الى ذلك ، ولا تقرأ من الكتب إلا ما له بذلك علاقة ، مع ان القرآن والسنة شرعا في امور الحياة الدنيا ضعف ما شرعا في امور العبادات والطاعات وعلى هذا الاساس وضع المؤلف هذا الكتاب ، فلم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها باسلوب مشبع بالحكمة والحنكة والتجارب العملية والدينية . ولندع الآن الحديث عن الكتاب ، لنقطف شيئاً من فصوله . ففي الحرص على الوقت

والاستفادة منه وعدم التفريط في القليل منه ، قال المؤلف رحمه الله :
« رأيت العادات قد غلبت الناس في تضييع الزمان ، وكان القدماء يحذّرون من ذلك قال الفضيل أعرف من يُعَدّ كلامُه من الجمعة الى الجمعة . ودخل على رجل من السلف فقالوا لعلنا أشغلناك ؛ فقال أصدقكم، كنت أقرأ فتركت القراءة لاجلكم. وجاء رجل من المتعبدين الى سَرِي السقطي فرآى عنده جماعة ، فقال صوت مُنخ البطالين ، ثم مضى ولم يجلس ، ومتى لان المزور طمع فيه الزائر فأطال الجلوس فلم يسلم من أذى ، وقد كان جماعة قعوداً عند معروف فأطالوا فقال : إن ملك الشمس لا يفتر في سوقها أفما تريدون القيام . وممن كان يحفظ اللحظات عامر بن عبد قيس : قال له رجل قف أكلمك ، قال فامسك الشمس » الى آخر الفصل .

وفي معنى الجد والمثابرة على العمل والتعب في سبيل الغايات الشريفة قال أيضاً من فصل : « تأملت عجباً ، وهو ان كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب في تحصيله، فان العلم لما كان أشرف الاشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة . حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهي الهريسة ولا أقدر ، لان وقت

بيعها وقتُ سماع الدرس ، ونحو هذا تحصيل المال ، فانه يحتاج الى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير ، وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ، فانه يفتقر الى جهاد النفس في بذل المحبوب ، وربما آل الى الفقر وكذلك الشجاعة فانها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس .

قال الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والاقدام قتال

وفي معنى إتباع الجادة السليمة في اعتدال وقصد ، الاقتداء بصاحب الشرع قال المؤلف أيضاً « الجادة السليمة والطريق القويمة ، الاقتداء بصاحب الشرع ، والبدارُ الى الاستنان به ، فهو الكامل الذي لا نقص فيه فان خلقاً كثيراً انحرفوا الى جادة الزهد ، وحمّلوا انفسهم فوق الجهد ، فأفاقوا في أواخر العمر والبدن قد نُهك ، وفاتت أمور مهمة من العلم وغيره ، وان أقواماً انحرفوا الى صورة العلم فبالغوا في طلبه فأفاقوا في أواخر قدم وقد فاتهم العمل به ، فطريق المصطفى (ﷺ) العلم والعمل والتلطف بالبدن ، كما أوصى عبد الله بن عمرو بن العاص وقال له: إن لنفسك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً فهذه هي الطريق الوسطى . الى ان يقول ومن تأمل حالة الرسول (ﷺ) رآى كاملاً

من الخلق يعطي كل ذي حق حقه فتارة يحرج ، وتارة يضحك ويداعب الاطفال ويسمع الشعر ويتكلم بالمعاريض ، ويحسن معاشرة النساء ، ويأكل ماقدر عليه وفتح له ، وان كان لذيذاً كالعسل ، ويُستعذَب له الماء ويفرش له في الظل ولم ينكر ذلك ؛ ولم يُسمع عنه بمثل ما حدث بعده من جهال المتصوفه والمتزهدين ، من منع النفس شهواتها على الاطلاق ، فقد كان يأكل البطيخ بالرطب ، ويطلب المستحسنات ، فأما أكل خبز الشعير ووزن المأكول ، وتجفيف البدن ، وهجر كل مشتهي ، فانه تعذيب للنفس وهدم للبدن لايقتضيه عقل ولا يمدحه شرع ، إلى أن يقول : ثم كان النبي (ﷺ) يوفي العبادة حقها بقيام الليل والاجتهاد في الذكر ؛ فعليك بطريقته التي هي أكمل الطرق بشرعته التي لاشوب فيها .

هذه أمثلة قليلة في اتجاه المؤلف لاتصلح أن تكون نموذجاً كاملاً للكتاب ففيه مواضيع كثيرة ونصائح ثمينة لانستطيع ان نأتي على جميعها بأمثلة وإصلاح الدين بما لايفسد الدنيا ، وغايتها إصلاح الدنيا بما لايفسد الدين .

الصوم ارادة وحرية ورياضة روحية (١)

تدبر المرء ان يسترسل في هواه ، فيأخذ ما يشاء ويدع ما يشاء ، ويسوءه ان يعرض سبيله ما يخفف من هذا الاسترسال أو يمنعه ، ويدعو ذلك حرية وانطلاقا ولكن لو شاء الانسان ان يضع الامور في نصابها ويردها الى ابواب العلم ان تسميته حرية وانطلاقا تسمية جوفاء او تسمية الشيء باسم نقضيه فاي معنى لان يتخلص الانسان من استعباد الناس والاشياء له ثم يتهالك على العبودية لنفسه وهواه ، ويسمى هذه العبودية الحاطمة حرية تخادعه بذلك نفسه الأمارة بالسوء وتزينه له فالحرية الحقيقية حرية الارادة لا حرية الهوى التي يوحى بها شيطان الحيوانية والغريزة والانانية الممقوتة وحرية الارادة لا تستوحي من الرغبات القريبة الفردية وانما مستمدها من الرغبات البعيدة للعقل المندمج في العقل الجماعي ،

(١) القيت في الاذاعة السورية .

فاذا رأى امرؤ مسلم في بلد مسلم مثلا أن يشق صفوف الكثرة من مواطنيه وبني ملته لينتبذ ناحية يعلن الحرية بافطاره ، فذلك الذي انعتق حقاً من تحكم العقل والارادة والذوق ايضاً ، واستبدت به عبوديته صعبة قاسية لانها تحلى له في اردية الحرية البراقة المحبوبة . اذن ليست الحرية الحقة ان يفعل امرؤ ما يريد ويدع ما يريد ، بل هذه عبودية ما اصعب التحرر منها ، لانها عبودية أضر ما فيها أنها تتردى رداء الحرية الكاملة ولو اتيح للبشر جميعا ان يسلك السبيل إلى هذه الحرية الظاهرة لسلك بالطبع سبيل فنائه ، وكل ما في الدنيا من قوانين وسلطات عاجز كل العجز عن أن يضبط نوازع الهوى ، ويخفف في غلواء حب الذات في النفس الانسانية ، وان فعلت شيئاً هذه القوانين والسلطات فانما تحاول أن تضع سدوداً لطغيان الغرائز في هذا الذي يسمونه الحريات الفردية ، فالقوانين لا تتعدى مراقبة الظاهر ، أما ما يغتلي من وراء الظاهر من شرور فلا تهتم به القوانين حتى يبرز وتعثر عليه والذي يعالج الانسان معالجة فعالة في ظاهره وباطنه ويحد من هواه وميوله ويعمل جاهداً على تهذيب غرائزه ، وتقليم أظافره ، انما هو ديننا الاسلامي وحده ، فقد وضع لغرائز الانسانية واهوائها وتصرفاتها

أعنة محكمة يأخذها بها عند ماتجمع وتمادى ، وسعى الى ترويضها في سلسلة محكمة من العبادات ليرفعها الى المثل الساقي من الانسان الكامل الذي يشعر انه جزء متماسك من كل مايؤذيه ما يؤذي غيره ، ويسره مايسر غيره ، وذلك باخباته لله في العبادة ، وشعوره ان هذا الخلق عيال الله ، فاحب الناس الى الله أنفعهم لعياله ؛ فالعبادات كلها في الاسلام رياضات روحية رائعة ، إذا مارسها مستجيباً بها لنداء الله خاضعا لأمره ، ومهتما في أن يكون شعوره بها انتقالاً من عالمه الارضي المادي الى حظيرة السماء حظيرة خالقه والمنعم عليه ومن بيده الامر كله ، والعبادات تغذية روحية تقوي بها الروح وتترعرع حتى تبلغ ان تصغر امامها الحوادث الجسام وتضمحل تلقاءها كوارث الحياة وآلامها . وتنفرج بها مشاكل العيش ، وما أولئك الذين يظنون أنهم اغنياء عن ممارسة العبادات والقيام بها الا قوم يحبون أن يترك المرء وشأنه تصرفه في الحياة رغباته وأهواؤه ، ولا يبالون بعد ذلك إن وقعت الكارثة في تعارض المطالب والشهوات ، فالقيام بالعبادات على وجهها تزكية للروح وقد أفلح من زكاها ، وإذا زكت الروح أرتفع الانسان وسمت خلائقه ، وصفت طبائعه ، وكانت اتجاهاته نبيلة الغاية

شريفة القصد ، وتنظيم العبادات في الاسلام رائع بديع لم يخل فترة من حياة الانسان يمكن أن تطغى فيها ماديته على روحه الا عالجها بالعبادة، وليرتد المرء إلى روحه وليذكر في كل احواله قائماً أو قاعداً أو على جنبه، ان هناك إلهاً يطلع على اعماله ، ويعلم ما تكن نفسه ، وما يتردد في فكره ويخلج في قلبه ،فاذا أيقن المرء بذلك وامتلاء به قلبه ،وخنس شيطانه وهذبت حيوانيته ، وقبعت نوازع الشر فيه ، ونزع الى الاحسان بدل الاساءة والى الخير بدل الشر ، وقد جعل الله للعبادات مواسم ، ووزع على قدر تكرارها تكاليفها ، فموسم عبادة لليوم وموسم عبادة للاسبوع ، وموسم عبادة للسنة، وموسم عبادة للعمر كله،فعبادة اليوم الصلوات الخمس،وعبادة الاسبوع صلاة الجمعة،وعبادة السنة رمضان،وعبادة العمر الحج الى بيت الله الحرام ، وكل عبادة من هذه العبادات لها أثر خاص في التهذيب الروحي . فالصلوات الخمس صلاة بين العبد وربه في كل يوم يناجيه بها ويشهده على نفسه انه إياه يعبد وإياه يستعين ، وأنه مقبل عليه طارحاً من ورائه كل شيء من امور دنياه اذ يقول في كل حركة من صلاته . الله اكبر ، واذ يقول في ركوعه : سبحان ربي العظيم . وفي سجوده ، سبحان ربي الأعلى بقلب خاشع وهو

يشهد ربه الخالق سامعاً مناجاته ومباركا له هـذه الزلفى اليه .
وصلاة الجمعة صلة اجتماعية يقبل اليها المؤمنون من كل حدب وصوب ليمثلوا أمام خالقهم مجتمعين متكاتفين يشهدونه بلسان حالهم ازما يصيب احدنا يصيب جميعنا من الخير والشر ، وانهم من التضامن بحيث لا يستطيع احد ان يفرق صفوفهم او يضعضع كيانهم ، ثم يقبلون عليه بعبادة واحدة من وراء إمامهم ، الذي يرشدهم الى اصلاح ذات بينهم ويدلهم على سبيل البر والخير ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، اما عبادة الصيام ، فهي عبادة اجتمعت فيها كل العبادات ، من صلاة وقيام وقراءة قرآن وبذل وصدقة ، فضلاً عن هذا الجهاد الاكبر في سبيل التخلص من عبودية الشهوات ، في الامساك عن الطعام والشراب والملذات ، وعبادة الصيام عبادة عملية حازمة ، تقف للانسان في طريق اهوائه وشهواته ، لتحد منها وتكسر من شرتها ، فما بلاء الانسانية إلا منها ، وما من رذيلة فردية او عامـة إلا وكان أساسها هذه المطالب الجسدية العارمة التي تحاول ان تحطم كل شيء في سبيلها ، فالصيام كما أمر الله كفيل ان يفتـأ من حدة الشر ، الذي ينتجـه نهم الانسان في الاستجابة لنفسه الامارة بالسوء ، والصيام كما امر الله ان تمسك لسانك

لا عن الطعام والشراب وما يبطل الصيام في الظاهر ، وإنما ان تمسك عن كل ما حرم الله من عثرات اللسان والجنان .

فرمضان كما امر الله تصفد فيه الشياطين ومردة الجن وتغلق ابواب النار وتفتح ابواب الجنة كما ورد في الحديث : إذا كان اول ليلة من شهر رمضان صفدت الشياطين ومردة ، الجن وغلقت ابواب النار فلم يفتح منها باب ، وفتحت ابواب الجنة فلم يغلق منها باب ، وينادي منادي يا باغي الخير اقبل ، ويا باغي الشر اقصر .

* * *

صيام المتقين (١)

يذكر المرء الجوع والعطش ، فيذكر بهما عدوين لدودين ، ويذكر الفقر فيذكر به الكفر ، كأنما كل شيء في الحياة الدنيا ، ان يشبع الانسان ويروى ويكنز المال ، مع الانسان قد فضل الحيوان بالعقل وفضله لسمو الروح . أما العقل فلكي يتصرف بأموره مختاراً وفق مصلحته الفردية والاجتماعية ، وأما سمو الروح ، فلينطلق من هذا القفص الجسدي الى عالم أرحب ، فيه المتعة والسعادة والحق والحرية ، وما يتاح له ذلك الا بأن يتناسى مطالب جسده وشهواته ، ويذعن لارادة روحه ، فان لم يستطع ذلك حياته كلها ، فلا أقل من أن يعالج ذلك من نفسه فترة من حياته . ولو تُرك المرء وما يختار لآثر لذاته الفانية على الباقية ، ولذلك فرض الله سبحانه عليه بصورة إلزامية ، صيام هذا الشهر المبارك ، يُعينه بصومه على نفسه ، ويرفعه إلى الخير

---

(١) القيت في الاذاعة السورية في شهر رمضان

والسعادة مرغماً ، فرمضان هو الجسر الذي وضعه الله سبحانه وتعالى، لأولئك الذين أراد إسعادهم ، بنقلهم من عالمٍ أكثرُ ما فيه الفساد والشر ، إلى عالم الروح الذي ليس فيه إلا السلامةُ والنعمة والطمأنينة. وما ينبغي أن نَغفُل عن أن رمضاننا الذي نصومه على طريقتنا ، ليس هو رمضان الذي يستطيع أن ينهض بأعباء هذه الرحلة المباركة ، من عالم الفساد إلى عالم الصلاح ، فرمضاننا لا يختلف عن أشهر السنة إلا بالجوع والعطش بياضَ النهار ، ولكنه يزيد عليها بكثرة اللغو ، ولي اللسان بالباطل واللهو ، يزجي الصائم بهذا فراغه ، وينسي به جوعه ، ويقطعُ وقته ماضياً عاتباً ونائماً مستغيباً ، فان اتخذنا رمضاننا مركباً نتنقل به الى حياه أمثلَ وأفضل ، فانما نركب منه سفينة خرقاء في بحر لجيٍّ ، لا يمكن أن نحلم فيها بنجاة ، فضلاً عن أن نستطيع أن نتم فيها هذه الرحلة الميمونة ، أما رمضان المتقين ، الذى أقبلوا عليه فرحين مستبشرين ، لا متذمرين ولا مكرهين ، فهو الرمضان الذي أطلق سراح هؤلاء من أسر شهوة الطعام والملذات ليجلبهم اليه ، ويذيقهم صفوه ويمتعهم بأنسه ويشملهم بنوره ، ويمنحهم فرحتيه ، ويبعث في نفوسهم اللذة بالطاعات ، وحلاوة العبادات ، فهؤلاء لا يهتمون بما يهتم

به الناس من انصرافهم الى التفكير في الطعام ، وإعداده نهارهم كله ، ولا يجوعون ويعطشون ليروحوا في مسائهم الى طعام وشراب قد تفننوا كثيراً في تجويدهما وتلوينهما، ليأكلوا ويشربوا بعين الجائع ونهم الممنوع ، وإنما يهتمون بارواحهم وغذائها ، وما يقويها وينشطها ، ويريدون أن يحققوا الغاية من الصيام ، بأن يكفوا النفس عن تماديها فيما كانت فيه قبل الصيام ، ويروضوها على الصبر والطاعة ، ويحملوها على الصبر عن المعصية ، ويكفوها عن الاستشراف الذي تصل فيه الى ما لا يجوز أن تبلغه ، حتى لا تهلك باستشرافها ، أما طعامهم فالطعام العادي وأقل منه ، لا يتكلفون تجويده ، كما لا يتكلفون إهماله للرياء والسمعة ، على أنهم لا يبلغون من الشبع حداً كما قيل ليماني : ما حد الشبع ؟ قال : أن يُحشى حتى يخشى . أو كما قيل لسمرقندي : ما حد الشبع ؟ قال : إذا جَحَظت عيناك وبَكَمَ لسانك ، وثقلت حركتك ، وازمحن بدنك (أي مال من الثقل) ، وزال عقلك فأنت في أول الشبع . قيل له : إذا كان هذا أوله ، فما آخره . قال ان تنشق نصفين . فما يبلغ المتقون هذا الحد من الشبع عند الافطار ، ولا قريباً منه كالكثرة من الصائمين ، وإنما يأكلون الى حد يُنقذون به أنفسهم من التهلكة ،

ويستعيدون به نشاطهم ، حتى يقووا على إتمام الصيام ، وعلى مواصلة الطاعات التي إن فاتهم موسمها فاتهم خير كثير، وهم كما قال بعضهم وقد سئل عن حد الشبع ؛ الشبع حرام كله ، وإنما أحل الله من الأكل ما نفى الخوى (الجوع) ، وسكن الصداع ، وأمسك الرمق ، ثم قال : وهل هلك الناس في الدين والدنيا ، إلا بالشبع والتضلع والبطنة واحتشاء ، فرمضان المنقين، رمضان معمور بالخير، يقومون ليله ايماناً واحتساباً ليُغفر لهم ما تقدم من ذنبهم ، كما قال رسول الله (ﷺ) من قام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه ، ويكثرون فيه من قراءة القرآن ، تدبراً وخشية وعملاً بما فيه ، ونزول القرآن في هذا الشهر المبارك ، رمز تكريم وتفضيل لهذا الشهر ، ورمز يحملنا على تعهد القرآن فيه، نخلو به مع أنفسنا ونزن أعمالها بما جاء فيه، فان كانت الاعمال تابعة لما جاء به ، حمدنا الله وشكرنا له تفضله علينا بالاعانة والتوفيق ، ورجونا منه الثبات والاستزادة ، وإن كانت الاعمال غير ذلك ، إجتهدنا بالمتابعة والانقياد ، وما يُنقذ المسلمين مما هم فيه إلا أن يجعلوا قرآنهم وسنة نبيهم ، حكماً عادلاً يرجعون اليهما أفراداً ومجتمعين، ويسعون لأن تكون أعمالهم مطابقة لما جاء بهما حذو القذة بالقذة ،

ورمضان المتقين هو الذى يُقبل فيه الصائمون على مجالس العلم والموعظة واستماع القرآن، ينتفعون في دينهم وإصلاح أخلاقهم وتغذية أرواحهم ويتنزهون بهذه المجالس المباركة، عن مجالس العبث واللهو، وأكل لحوم الناس بالحق أو بالباطل، ويشعرون أن الكذب والغش والغيبة وأمثالها أدعى الى إزهاق روح الصيام، من الطعام والشراب، فمن صام من المسلمين هذا الصيام، فقد صام حقاً وكان من المتقين، ومن لم يمنعه صيامه عما حرم الله، ولم يبعث فيه نشاطاً على عبادة الله، ولم يبث فيه العطف على عباد الله، فذاك الذي لم يصم، وإنما عذب نفسه بالأمساك عن الطعام والشراب، وليس معنى هذا أن يفطر، فانه إن فعل فقد جمع السوأين، وإنما عليه أن يجتهد ليقبل الله صومه، ويدخر له أجره، وقد قال الامام الغزالي ما معناه: الصوم ثلاثة. صوم العامه، وصوم الخاصة، وصوم خاصة الخاصة، أما صوم العامة فهو الصوم عن الطعام والشراب وما يفطر، وأما صوم الخاصة فهو الصوم عن الطعام والشراب وجميع ما حرم الله، وأما صوم خاصة الخاصة، فهو الصوم عن كل ما سوى الله، اللهم اجعل صيامنا صيام الخاصة، ووفقنا للقيام بطاعتك كما ترضى، واجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

حكمة الصيام في مواساة المعوزين (١)

مايريد الله سبحانه وتعالى بفرض الصيام علينا ؛ اجاعتنا ، إثباتاً لجبروته ، واظهاراً لقدرته ففي كل لحظة زمنية وكل حركة في هذا العالم الصغير ، والعالم الكبير ، دلائل على عظمته ، وأن ماهي الكون في قبضته . ولقد خلق الله خلقه ، على ان الاسباب فيه منوطة بمسبباتها ، وانه كان يمكن ان يبدعنا طيبين طاهرين ، منذ خلقنا ، لولا ان كوناً لاحركة فيه ، ولا تفاعل بين الخير والشر ، ولا طموح الى الكمال ، كون ميت ، لا يُعبأ به ، فاذا جعل في الانسان منازع الى الشر ، جعل تلقاءها في العبادات التي شرعها ما يكبح جماحها ، ويخفف من غلوائها ، وهكذا فرض الله الصيام ، ليكافح في الانسان شروره ومآثمه ، فما كافحه الصوم وحاول اصلاحه وامتحن به المتعبد ، شحّ النفس الذي اورث في نفوس المسرفين ، غفلة أغرقتهم ، حتى لم يعودوا يشعرون

---

(١) القيت في الاذاعة السورية في شهر رمضان

الا بوجودهم ، ولا يهتمون الا برفههم ، فهم لهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها ، ولهم قلوب لايشعرون بها ، قد غمرتها المطامع واللذات ، حتى افقدتها احساسها ، فلو أنهم امتثلوا امر الله ، وصاموا له كما أمرهم ، لكشفوا بعض الشيء عما ران على ابصارهم واسماعهم وقلوبهم ، فشعروا أن هناك من اخوانهم وجيرانهم وأولى ارحامهم ومواطنيهم ، من يجوعون جوعهم ، ولكن عن فاقة وقلة ، وان منهم لمن يأتيهم رمضان ، فلا يكون جديداً عليهم ، فأن سنتهم كلها رمضانُ جوعاً وفاقه ، ومن الصعب ان يتصورا مرؤ حاجة المحتاجين ، وجوع الجائعين وبؤس البائسين ، وهو عنهم في برج مرتفع من النعيم والمتعة والامتلاء ، ويجب أن نعلم ان هلاك امة من الأمم ، وإدبار امرها ، ونذيرَ السوء فيها ، أن يختلف الناس لابالفقر والغنى ولا بالشهوة والخمول ، ولا بالدهاء والغباء ، فكل هذا عريق في الطبيعة ، وانما ان يسودَّ شعور الناس بعضهم إزاء بعض ، فالفقير يحسد الغني ، والغني لايشعر بوجود الفقير ، والخامل يكيد لصاحب الجاه ، وصاحب الجاه لايكترث للخامل ، والداهية يعبث بالغبي ، والغبي مستعبَدٌ للداهية فأيةُ أُمة هذه حالها . ليست امةً واحدة وإن عاشت على أرض واحدة

في وطن واحد ، إذ لا تستطيع تكتيل قواها وتوحيد أجزائها، لتندفع نحو الحياة الحرة المثلى ، بل لا تستطيع أن تكون شيئاً يُعتد به ، مهما طال الزمان عليها، فالأمة الحقيقية لا يضجيج معاملها ولا بنيران مدافعها وإنما بتناسق مشاعرها ، ووحدة روحها ، وتبادل العطف والمودة والاخاء والنجدة بين أفرادها ، وفي حياة النبي (ﷺ) مع صحابته مثال رائع من ذلك كله ، فقد كانوا فعلاً كالبنيان المرصوص ، فاذا جَهد غنيهم ، بمهارته وتعبه في تثمير ماله ، فذلك لا ليتعالى على الناس بغناه ، ويظهرُهم على أنه من ذرية آدمٍ غير آدمهم ، بل لينزل اليهم ويعيش معهم ، ويعمل على مواساتهم وتضميد جراحهم لا يتقيد بما وجب عليه من زكاة ، وإنما يجاوزها أحياناً الى الاضعاف المضاعفة ، ينفقها على الفقراء والمساكين ، والعاجزين والمصابين، والفاقدين واللاجئين، وعلى ما كانت تحتاج اليها الدعوة الاسلامية الحبيبة اليه بسخاء من لا قيمة للمال لديه ، إلا بمقدار ما يشيد به مجد دينه وأمته ، وبمقدار ما ينفع به الفقراء والمعوزين ، أما حياة النبي (ﷺ) مع صحابته فلا تحتاج الى تبيان مع أن الله الذي أرسله قادر على أن يعطيه من الدنيا ، بمقدار ما أعطاه من الشرف والفضل والمكرمة، ومع أن أغنياء صحابته عندهم من التفاني

في حبه وإطاعته ، ما يرخصون له أرواحهم فضلاً عما يملكون ، مع كل ذلك، لم يخطر له قط، أن يطمع الى شيء مما يملكون ، أو أن يأخذ من اموالهم صدقات يبذخ بها كما يفعل بعض من يدعي الاقتداء به ، وإنما آثر أن يعيش مع صحابته واحداً منهم ، بل واحداً من فقرائهم ومساكينهم ـ ليكون بصورة واقعية عن كثب من الفقراء و المعوزين، يواسيهم بهذه المساواة، ويلطف شقاوتهم بكونه مثلهم ينالهما ينالهم، روى عروة عن عائشة انها كانت تقول : والله يا ابن أختي ، إن كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ، وما أوقدت في أبيات رسول الله (ﷺ) نار ، قلت يا خاله فما كان يُعيّشكم ، قالت الاسودان التمر والماء ، وروى عن أبي موسى الاشعري قال أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً وازاراً غليظاً ، قالت قبض رسول الله(ﷺ)في هذين ، وعنها قالت ، كان فراش رسول الله من أدَم حشوة ليف ، هذا طعام رسول الله وهذا كساؤه ، وهذا فراشه ، وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير ، ومع كل هذه الحاجة للطعام لنفسه وأهله، ما كان يأتيه شيء من الطعام هدية له إلا وكان يشرك فيه الفقراء، بل يؤثرهم على نفسه ولو كانت به خصاصة ، روى عن أبي هريرة قال :

والله الذي لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمدُ بكبدي على الارض من الجوع ، وإن كنت لأشدّ الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذي يخرجون منه ، فمر بي النبي (ﷺ) فتبسم حين رآني وعرف ما في وجهي وما في نفسي ، ثم قال أبا هر ، قلت لبيك يارسول الله قال إلحق ومضى فاتبعته فدخل ، فاستأذنته فاذن لي ، فدخلت فوجدت لبناً في قَدَح ، فقال من أين هذا اللبن ، فقالوا أهداه لك فلان أو فلانة ، قال أبا هر قلت لبيك يا رسول الله قال إلحق الى أهل الصفة فادعهم لي ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها اليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية ارسل اليهم واصاب منها وأشركهم فيها ، فساءني ذلك ، فقلت وما هذا اللبن في أهل الصّفة ، كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شُربة أتقوى بها ، فاذا جاؤوا أمرني فكنت أنا أُعطيهم ، وما عسى ان يبلغني من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بدٌ ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا فاذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت ، قال أبا هر قلت لبيك يا رسول الله ، قال خذ فأعطهم قال فأخذت القدح فجعلت أُعطية الرجل فيشربُ حتى يروى ، ثم يرد عليّ القدح فأعطيه الآخر فيشربُ حتى يروى ثم يرد عليّ القدح حتى

انتهيت الى النبي (ﷺ) وقد رَوِي القومُ كلُهم فأخذ القدح فوضعه على يده فنظر إليّ فتبسم فقال أبا هر قلت لبيك يارسول الله قال بقيت أنا وأنت ، قلت صدقت يا رسول الله ، قال اقعد فاشرب ، فقعدت فشربت فقال اشرب، فشربت، فما زال يقول اشرب حتى قلت لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلكاً ، قال فأرني ، فأعطيته القدح ، فحمد الله تعالى وشرب الفضلة .

فيا ايها الفقراء لا تأسوا على ما فاتكم من رغد العيش فلكم برسولكم سيد الدنيا أسوة ، ويا أيها الاغنياء ما ينقص مال من صدقة أو إنفاق ، ولكم أيضاً بالبذل وإرخاص المال والايثار به برسول العالمين أسوة حسنة .

* * *

رمضان: موسم عبادة[1]

ها قد مضى من هذا الشهر المبارك أكثره، فليحاسب امرؤ نفسه، وليقدر عمله، فان زاده الصيام دنواً من الله، وابتعاداً عن نزوات الهوى والشيطان، فقد صام حقاً، ومن لم يُفد من الصيام إلا الامساك عن الطعام والشراب نهاره، ليعدّ جوفه للامتلاء مساءه، ثم هو في انصياعه لنفسه الآمرة بالسوء، وانكبابه على الملذات، واستجابته للشيطان في اغرائه فيما يسخط الله، كما كانت حاله قبل الصيام، فذاك الذي لم يصم، بل أشقى نفسه بحرمانها واجاعتها.

ويعجب الله والملائكة والصالحون، من امرىء مسلم، يقبل عليه موسم من أعظم مواسم العبادة، ثم لا يربح فيه ولو قليلاً، إن لم يخسر كثيراً. فليستدرك المتخلفون، فما يزال في الوقت متسع، وما زالت الايام الباقية من هذا الشهر المبارك حافلة بالخير الكثير لمن اراده،

---

(١) القيت في الاذاعة السورية

وحافلةً بالربح لمن ابتغى الربح ، بل ان هذه الايام الباقية ، هي أعظم ما في هذا الشهر بركة وخيراً وربحاً ، ففي هذه الايام تُمتحن في الصائم قدرته على الصبر ، وفي هذه الايام تلتمس ليلة القدر ، التي هي خير من الف شهر ، فمن اجتهد في الطاعة والعبادة فليزدد فان ما عند الله من الثواب لا ينفد ، ومن قصر عن هؤلاء ، فليجدّ وليلحق بهم ، ففي العبادات ، يجتاز الانسان المسافات ، بلمحات ، إن اتقى الله وخشع له ، ومن تخلف فلا يقنط ، وليعزم أمره ثم ليتقدم ، نادماً على ما فرط ، تائباً الى الله ، طامعاً برضاه ، بجده وعمله ، لا بأمانيه وكسله .

وبالطبع ما نريد بالحث على الربح ، الاقبالَ على حوز اكبر مقدار ممكن من العبادات الظاهرة فقط ، بل أن يهتم الانسان بنتائجها ، فما شُرعت العبادات الظاهرة ، إلا لترويض الانسان على الانقياد لاوامر الله سبحانه وتعالى ، عند ذلك يقف دون الحدود التي رسمها الله له ، والحدود التي رسمها الله له ، هي النطاق حول حريته الطلقة ، له أن يفعل ما يشاء في هذا النطاق ، فاذا سلم هذا الحد من التجاوز عليه ، وتحصن به من أراد الطاعة والانقياد ، فقد استقرت أمور الناس . وارتاحت البشرية ، وعم الاخاء ، وزالت النفرة ، وفي هذا النطاق تعينت علاقات

الفرد مع الله ، وعلاقات الفرد مع الفرد ، وعلاقات الفرد مع الجماعة ، والجماعة مع الفرد ، وعلاقات الجماعة مع الجماعة ، فاذا تبينت الحدود بشكل واضح ، وليس في الاسلام - والحمد لله - إلا الوضوحُ وإلا الاحتياطُ للمشاكل قبل أن تقع، ارتفعت الخصومات، وارتاع الناس. وإذا جاوز الناس حدود الله ، فقد اضطرب بينهم حبل المودة ، وكاد بعضهم لبعض ، فكان التعدي والظلم : والشر والأذى ، ومن يتعدّ حدودالله فأولئك هم الظالمون ، إذن ليست العبادات الظاهرة هي كل شيء ، حتى تُنتجَ تقوىً حقيقية ، والتقوى الحقيقية هي أن تكون دائمَ الحذر من غضب الله ، وذلك بأن تأتمر بأوامره ، وتنتهي عن نواهيه ، لا بما يوافق الطبع والهوى بل بكل شيء ، وإلا كنت كمن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والمؤتمر بالأمر هو الذي يفعله وإن أتي على غير ظاهر مصلحته ، والمنتهي عن امر ، هو الذي يكف عنه، وإن أتى في ظاهر مصلحته، وإلا فالدين لا يجوز ان يقسم على الأهواء، أو أن يسخر للمصالح ، وليس من حقه علينا ، إلا نمارس منه إلا ما وافق اغراضنا ومصالحنا ، فاذا أنتجت العبادات هذه التقوى ، فتلك التي ينتفع بها المتعبد لنفسه ، وينتفع بها لغيره ، ففي الاثر : من لم تنهه

من إذ استمع القرآن بكى وخشع ، وشهد بأنه كلام فوق مقدور البشر، وهو لا يزال على كفره، ما كان منه ذلك إلا باستغراقه بدلائل الآيات البينات ، ورهبته مما فيها من تصوير للوعد والوعيد بهذا تكون العبادات رياضة روحية ناجعة ، تحمل الانسان على التقوى التي تلجئه الى حدود الله راضياً مغتبطاً ، ولعبادة قليله ينشط اليها الانسان خاشعاً متفهماً ، خير من عبادات تملأ الليل والنهار ولكنها خالية جوفاء .

صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له ، فاذا عكف الصائم على قراءة القرآن يهدره هدراً ، ولا يجاوز تراقيه ، وأوى الى المسجد بعد العشاء يتروح بعشرين ركعة ، وانصرف نهاره يلوك بلسانه أوراداً وأدعية ربما لا يفقه معانيها ، إذا فعل ذلك كله ، ثم امتحن بالصدق فكذب ، وامتحن في النصح فغش ، وامتحن بأن يرحم عباد الله فادخر أقواتهم وامتص دمائهم ، وامتحن بألا يأكل اموال الناس بالباطل فأكلها ، وبألا ينافق ولا يداهن ، فنافق وداهن ، وامتحن بأن ينفق بسخاء وبغير مَنٍّ على الفقراء والمعوزين ، فأمسك ، ولم يطاوعه شحه أن يعطيَ حتى ما افترضه الله عليه . فهل تقرّبه عبادته الظاهرة من الله ، وهو جاهد في إيذاء عباده ، وإذا قلنا ذلك ، فما أردنا ان يدع المتعبد هذه العبادات التي ندب اليها رسول الله (ﷺ) فرسول الله لا يندب الى امر إلا وفي عقباه الخير ، وإنما أردنا أن يسعى بأن يقوم بالعبادات على وجهها ، وذلك بأن تتفتح نفسه لها وتنشرح بها وتخشع بتلاوتها ، وتستغرق بمعانيها ، فاذا كان القرآن لو أنزل على جبل لرأيناه خاشعاً متصدعاً من خشية الله ، فما بالنا لا نخشع نحن ولا نخشى ، أم ان في قلوب الناس ما هو أشد قسوة من الحجارة ، لقد كان في كفار قريش

وداع رمضان (١)

مضى رمضان مثل ما مضى غيره ، وصار في ذمة الماضي ، يحمل في انبائه طاعة المتقين الذين أدوا اليه ما ابتغي منهم من صيام عن الطعام والشهوات ومن صيام عن المحرمات والمكروهات ومن قيام بكل ما ندبه اليهم من البر والاحسان والتصدق بقلب تنقى من الأدران ونفس تزكت عن المآثر ، فيرفع كل ذلك الى ربه راضياً مستبشراً راغباً اليه ان يكون من جزائهم عنده ان يغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وان يثبتهم على ان تكون السنة كلها عندهم رمضان اقبالاً على الصالحات وتنزهاً عن الآثام وترفعاً عن كل ما يدنس النفس وان يعينهم على ان تكون اهواؤهم كل عمرهم تبعاً لما جاء به محمد رسولهم (ﷺ) وان يفيهم ما وعدهم من الجزاء على ما تحملوا لأجله من المشقات اما اولئك الذين لم يكترثوا له ولم يشعروا بوجوده فسيحمل لهم في أثنائه سجلاً

---

(١) القيت في الاذاعة السورية .

من اعمال السوء قد اغرام بها نفوس لا ترى أمتع من اتباع الهوى، ولا أطيب من العبودية للشيطان وسيرفعه إلى ربه ممتعضاً متألماً، ذاكراً انه ضيف لم يُكرم هؤلاء مثواه، ولم يؤدوا اليه واجب الوفاء ومع ذلك سيرجو لهم الله أن يعينهم على أنفسهم، ويردهم عن غيهم واسترسالهم، لعلهم أن يكونوا في رمضان القابل أحسن حالاً، وأطيب نفساً، وأدنى إلى الطاعة والانقياد، وأما اولئك الذين صاموا ولم يصوموا فعسى أن يكونوا عند رمضان من الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً..

انتهى رمضان وولى، وأسدل عليه الزمان ستاره، فما في مقدور أحد أن يرجعه، او أن يرجع فترة واحدة منه ليزداد فيه قربة إن كان من العابدين، أو يتمم ما نقصه ان كان من المفرطين، أو يستدرك ما فاته إن كان من المحرومين، لا يستطيع أحد أن يدرك مافاته في رمضان، فان يعود رمضان، ولكن استدراكه والقيام ببعض شأنه، أن نغتنم هذه الفرصة فرصة آخر يوم منه حين يستعد الناس للعيد، ويقبلون على ابتياع المتاع والكساء والحلوى لأنفسهم ولأطفالهم، أن نغتنم هذه الفرصة لادخال الفرح والسرور على أطفال ينظرون إلى آبائهم نظرة انكسار، وآباؤهم تتفطر قلوبهم عليهم لانهم لا

يجدون ما ينفقون ،فرحمة هؤلاء الاطفال البائسين ، وانقاذهم مما يعانون من آلام في فقرهم وحرمانهم وعجز آبائهم ، افضل عند الله من أكثر أعمال البر ، فمن كان في قدرته ان يمحو شقاوة بعض هؤلاء أو يخفف منها، ويمسح بيد الاحسان قلوبهم ،فليفعل !فان مواساة عباد الله أردعلى المواسي طاعة وقربة من صيامه وقيامه ، وهي غنيمة كبرى للمستطيع فان الله ليتجاوز عن ذنب السخي ، أما من صام وقام وأدى فرائضه وسننه وكان قادراً على التصدق والبذل فلم يفعل ، فانه ليكاد ألا يقبل له طاعة مهما ضحى في سبيلها من نفسه ، وبهذا يمتحن الله عباده بالطاعة فان بذلوا أموالهم وهي عزيزة عندهم للفقراء والمعوزين فقد استجابوا حقاً لربهم ،وخضعوا الأمره،فأثابهم ورضي عنهم ،وإن لم يفعلوا ، فليسوا بالعابدين ولا المطيعين ، فللعبودية الطاعة ، ولا طاعة لمن لا ينقاد الا لما وافق مزاجه وساير طبعه ، فهلم أيها الاغنياء والموسرون فكم بين جيرانكم وأرحامكم وعمالكم ، وكم من الفقراء المتعففين بين ظهرانيكم ،وكم من اللاجئين الذين كانوا في أوطانهم من المنعم عليهم في بلدكم ، كم من هؤلاء وهؤلاء يفتشون عما يمسك أرماقهم فلا يجدون واطفالهم ونساؤهم في غمرة من الفاقة ساهون. وأما بعد ، فغداً العيد

والعيد فرحة الصائمين الذين امتثلوا لنداء ربهم في قوله « فمن شهد منكم الشهر فليصمه » وقد اطلق لهم بالعيد ما قيدهم به في رمضان ، فغدوا إلى بيوته يكبرونه ويحمدونه على أن هداهم لطاعته ووفقهم للاذعان لأمره ، ثم ينصرفون ليسعوا مبتهجين الى زيارة أرحامهم وجيرانهم واخوانهم يصلون ما انقطع من الزيارات ، ويجددون ما بلي من المودات ، ويعيدون ما كان من الصلات ، والعيد ظاهرة اجتماعية قوية تتوثق بها روابط المواطنين وتمتن بها أواصر المودة فيما بينهم ، فيتعاونون على الخير ويشد بعضهم أزر بعض في الحق ، وما لنا إلا ان نرجو الله أن تكون أعيادنا بهذه المثابة ، وأن تكون سبباً للاعتصام بديننا والتمسك بتشريعنا ، وأن تكون حافزاً لنا على تجديد الهمة ، وبذل الجهد للعمل على خير ديننا ودنيانا وبلادنا أعاده الله على المسلمين وعلى العرب بالخير العميم ، وأعاده عليهم وهم أعزة موحدون تحت راية كتاب الله القائل : واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

جدول الخطأ والصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥	٣	بالقول عما	القول بما
١٥	٧	العاية	الغاية
١٧	٨	انى	أبْغَى
٣٦	١٥		عندك
٤٠	٨	كال	كان
٦٩	١٥	منفادا	منقادا
٧٤	٢	الناص	الناس
٨٩	٥	يجدوا	يجددوا
٨٤	١١	تحقق	تحقيق
٩٩	٢	الصادقه	صادقه
١١٦	١٠	شم	شيم
١٣٢	١١	الاداره	الارادة
١٣٧	٨	الامثال	الامتثال
١٣٩	٥	فكل من	فكل في
١٤٧	٥	يكون لله	يكن الله
١٤٩	٥	المسلمون	المسلمين
١٥٤	٣	وان	إن
١٥٨	١	لايبيع	لايبيع إلا
١٧٧	١٠	ويذكرونها	ويذاكرونها
١٨٥	٥	قرار	كَنَف

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٨٧	٤	أرهقت	أرهق
١٨٧	٩	جحيمها	وجحيمها
١٨٩	٦	وتدرب	وتذوب
١٩٠	١٤	أنضاناً	انضانا
١٩٢	٥	ينصرون	ينضرون
١٩٥	٤	يخول	نجول
١٩٥	١٠	جيد	صيد
١٩٦	١٣	المائويه	المانويه
١٩٧	٣	اى	الى
١٩٩	٦	صوت	صرت
٢٠١	١	يحرج	يمزح
٢٠١	١٤	واصلاح	وغايتها اصلاح
٢٠١	١٤	وغايتها اصلاح	واصلاح
٢٠٢	١	تدبر	يسر
٢٠٢	٢	يعرض	يعترض
٢٠٢	٤	ابواب العلم	ابوابها لعلم
٢٠٤	١	تجمع	تجمح
٢٠٤	٢	الساقي	السامي
٢٠٤	٣	مايؤذيه	يؤذيه
٢٠٤	٤	هذا الخلق	الخلق
٢٠٥	٣	وليرتد	ليرتد
٢٠٥	٤	اله	الهاً

ص ١٩٦ سطر ٦ وردت هذه الجملة في غير موضعها ويجب حذفها وهي : بالعجب أن يغلب وانما العجب ان يغلب . ويعوض بدلها لفظ : به

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠٥	٥	يخلج	يختلج
٢٠٦	١٥	نعتاً	يفثاً
٢٠٧	٥	وتحقت	وغلقت
٢٠٨	٣	مع الانسان	مع ان الانسان
٢٠٨	٤	لسمو	بسمو
٢٠٨	٩	لاثر	لآثر
٢٠٩	٨	ويلى	ويليَّ
٢٠٩	١٠	ماضياً	ماجناً
٢٠٩	١٠	عاتبا	عابثا
٢١٠	١٣	وازمحن	وارجحن
٢١١	٦	واحتشاء	والاحتشاء
٢١٦	٢	يطمع	يطمح
٢١٦	١١	غليظا	غليظين
٢٢٠	١٣	الطلقة	المطلقة
وقع خطأ بترتيب الصحائف (٢٢٣) بدلا عن (٢٢٢) وبالعكس			
٢٢٤	٢	ابنائه	اثنائه
٢٢٤	٥	المآثر	المآثم

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library
32101 073548685